

البيان زهير

بحث بقلم

مستطفي عبد البر البرزق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

البناء زهير

بحث بقلم

م. طفي عبد الرزاق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبي - أقرأ على والدي - يرجه الله -
شيئا من كتب الأدب في بعض الليالي . وقد أحببت شعر البهاء
زهير منذ عرفته .

كان يتأتى لعقلي الناشئ أنا يستشف معانيه من ثانيا ألفاظه
اللطيفة وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون
لمعاني كشيئا في الشعر أحيانا وفي النثر . وكان موقع وزنه الموسيقي
ينعّمه يستثير في نفسي أريجاً وطرباً ، حتى لتأثر بذلك ذوقي ، فهو
هفو في البيان الى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكتّابون عنه
وفما حفظت لنا الأيام من آثاره ، فتجلى لي من امتياز الرجل
وتفوقه ما ملأني حباله وتقديرا .

البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم : يجمع الى حب الخير
وفضيلة العفو قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء . وتلك
صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة ، خصوصا في عصر
كعصر البهاء زهير ولمن كان في مثل منصبه .

كان البهاء زهير صديقا للشاعر المشهور جمال الدين المصري يحيى بن مطروح الذى ولد بأسىوط سنة ٥٩٢ هـ ، ثم أقام بقوص زمنا . وفى قوص تعارف البهاء زهير وابن مطروح ، وعاشا كالأخوين أيام الصبا ، ثم اتصلوا معاً بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من قبل أن يتولى الملك فى حياة أبيه الملك الكامل ، واستمرا فى خدمته بعد أن صار ملكا .

أما ابن مطروح فكان فى صورة وزير لدمشق ، وحسنت حاله وارتفعت منزلته .

قال ابن خلكان : « وفى سنة ٦٤٦ عزل ابن مطروح عن ولاية دمشق ... ثم عاد الملك بعسكره الى الديار المصرية وابن مطروح فى الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له ، لأمر تقمها عليه . وخيم الملك الصالح عسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه . ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح الى مصر وأقام بها فى داره الى أن مات سنة ٦٤٩ هـ . »

أما البهاء زهير فقد بلغ رتبة تزاحم الوزارة جاهها أو تزيد ، وهى رتبة الرياسة لديوان الإنشاء . وقد تنكر له الملك الصالح أيضا فى أواخر أيامه وعزله ، فى حديث نرويه منفصلا بعد ، فأبى للبهاء زهير شرف نفسه أن يتنصل من ذنب لم تكن كل تبعته عليه ،

وأبى له شمه أن يقيم في الخدمة مع الإعراض عنه ، فرحل من فوره
الى داره ولزمها فقيرا معدما حتى مات .

واذا كان البهاء زهير عظيما في خلقه ، كما رأيت ، فهو عظيم
أيضا بمقامه في تاريخ الأدب العربي .

عاش البهاء زهير في القسم الأخير من العصر العباسي ، وكان
الأدب العربي في هذا الدور قد جاوز المدى في التعميق والعناية
بالمحسنات البديعية والسجع والإغراب اللفظي .

وأشهر أئمة الإنشاء في ذلك العصر رجلا : أحدهما القاضي
الفاضل محي الدين ، أو مجير الدين ، أبو علي عبد الرحيم البيهقي
ثم العسقلاني ثم المصري ، وزير صلاح الدين وصاحب ديوان
الإنشاء لعهد المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ،

وثانيهما العماد الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
حامد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

ويلقب القاضي الفاضل بشيخ البلاغة ، ويلقب العماد الكاتب
بعمدة المنشئين .

وقد أدخل العماد أساليب الترسل بما فيها من سجع وجناس
وأقتباس واستعارات وكنايات ، في المؤلفات العلمية ، فكتب
في التاريخ كتبا على هذا الطراز : مثل مؤلفه المعروف بالفصح القسي
في الفتح القدسي .

أما القاضي الفاضل فله في كتابة الإنشاء طريقة تعرف
بالطريقة الفاضلية ، سار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعد
عصره ، وفشت في الأدب العربي . وقد سنّ سننا فيما تصدر به
الرسائل والتواقيع وما تحتم ، وفي أساليب الدعاء وغير الدعاء .
وتمتاز الطريقة الفاضلية بالإطناب وكثرة الاقتباس والتضمين
والمطابقة والتورية والمجاز مع الإسراف في الجناس وما إليه من
المحسنات اللفظية ومع الميل إلى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .
عين البهاء زهير رئيسا لديوان الإنشاء في الدولة الأيوبية ،
فحل محلا كان القاضي الفاضل صاحبه من قبل ، وتولاه بعده
تلميذان من أتباع مذهبه .

جاء البهاء زهير والطريقة الفاضلية في عنفوان مجدها ، فابتدع
هو في الشعر والإنشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة
في صور المخاطبات وفي الأساليب : فهو موجز لا يحب الإطناب ،
وهو مقتصد في زينة اللفظ ، وهو نزاع إلى الوضوح والبساطة فلا
يرضى كثرة المجاز والكناية ، وهو عدو للجمود على نظم في البيان
تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

ثم هو لا يريد أن يستبدل الناس بكلامهم العادي كلام الجاهلية
الأولى إذا نظموا الشعر أو كتبوا ، وإنما يريد أن يصحح الشعراء
والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لا تنقطع

الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يحنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها .

هذا المذهب الجديد في إصلاح الأدب العربى لم يلق فى ذلك المصر ما يمدّه ويقوّيه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقه الوديع رجل كفّاح يجاهد متحمسا فى سبيل دعوة لمذهب جديد . لم يرق لكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلصها من التكلف الى مسaire الفطر . ولقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير فى ديوان الإنشاء ، حتى من تخصص منهم بهذا الموضوع كالقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى ، فلم يروا منهم أحد شيئا من الرسائل التى كتبت بقلمه على كثرة ما نقلوا من رسائل كتاب هم دونه مقاما .

وكل ما عثرنا عليه من ذلك رسالته فى الرد على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسنعرض لها فيما بعد . ذكر هذه الرسالة الإسحاقى فى تاريخه ، ثم أوردتها المقرئى فى خطه ، ونقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية .

وهذه الرسالة المفردة تهدى ، عند مقارنتها بما كان يكتبه القاضى الفاضل والعماد الكاتب وأضرابهما ، الى المنازع التى اختص بها البهاء

زهير ويعين على ذلك ديوان شعره . وعسى أن يوفق الباحثون
الى أخوات لهذه الرسالة تزيدنا علما بطريقة البهاء زهير وخصائصها .

هذا ، ولست أعرف شاعرا نفخت مصر فيه من روحها
ما نفخت في البهاء زهير ، فهو مصرى في عواطفه ، وفي ذوقه ،
وفي لهجته الى الغاية القصوى ، وان كان مولده في بلاد الحجاز .

من أجل ذلك كله ، وضعت هذا البحث في البهاء زهير الشاعر
المصرى ، إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تذكاره . وقد
سبقنى في العام الماضى الى نشر بحوث في البهاء زهير وشعره
الأستاذان المنشاوى والسقا المدرسان بالمدارس الثانوية الأميرية ،
والأستاذ الشايب المدرس بالجامعة المصرية ، واطلعت على ما كتبوا
بعد أن فرغت من رسالتى .

وقد تحزى الأساتذة مطابقة المنهج الذى وضعته وزارة المعارف
لدرس الأدب العربى وتاريخه ، فلهم فى البحث وجهة غير وجهتى ،
وهذا ما يسوغ لى أن أنشر رسالتى بعد أن نشروا كتابهم القيمين ،
معترفا بفضالهم ، مثنيا عليهم جميل الثناء .

مصطفى عبد الرازق

مصر فى مارس ١٩٣٠

المهلب زهير

(١)
أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر
ابن منصور بن عاصم المهلبى العتكى الأزدي الملقب بهلم الدين
المعروف بالمهلب زهير .

والمهلبى نسبة الى المهلب بن أبي صفرة ، فالمهلب زهير ينتسب
الى المهلب الذى كان من أشجع الناس وكان سيّدا جايلا .
روى أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بمكة ،
نحلا به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية
القرشى ، فقال : من هذا الذى قد شغلك يا أمير المؤمنين يومك
هذا ؟ قال : أما تعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا سيّد أهل العراق ، قال :
فهو المهلب بن أبي صفرة ! فقال المهلب : من هذا يا أمير المؤمنين ؟
قال : سيّد قريش ، قال : فهو عبد الله بن صفوان ؟ قال : نعم
وتوفى المهلب سنة اثنتين وثمانين وخلف عدّة أولاد نجباء أجوادا
أجادا ، وتسلسل المجد فى ذريته زمنا طويلا .

والعتكى (بفتحيتين) نسبة الى العتيك : بطن من قبيلة الأزدي
والأزدى هى أزد شنوءة ، ويقال الأسد بالسين .

(١) فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن يوسف بن تفرى بردى المتوفى
سنة ٨٧٤ هـ : « أبو الفضل وقيل أبو العلاء » .

وَيَصِفُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ الْبَهَاءَ زَهْرًا بِالْمُجَازَى ، وَيَصِفُهُ
بَعْضُهُمْ بِالْمِصْرِيِّ ، وَيَجْمَعُ لَهُ آخَرُونَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ .

وَلَمَّا كَانَ مَوْلِدُ الْبَهَاءِ زَهِيمًا بِمَكَّةَ أَوْ بِوَادِي نَخْلَةٍ بِالْقُرْبِ مِنْ
مَكَّةَ ، فِي رِوَايَتَيْنِ رَوَاهُمَا عَنْهُ ابْنُ خَالِكَانَ الَّذِي عَرَفَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ ،
فَإِنَّ الْبَهَاءَ زَهْرًا مِصْرِيًّا الْمَنْشَأَ ، مِصْرِيًّا الرُّوحَ ، مِصْرِيًّا الْعَاطِفَةَ ،
وَهُوَ الْقَائِلُ :

فَرَعَى اللَّهُ عَهْدَ مِصْرٍ وَحَيَا	• مَا مَضَى لِي بِمِصْرَ مِنْ أَوْقَاتِ
حَبَا النِّيلُ وَالْمَرَآكِبُ فِيهِ	مُصْعِدَاتٍ بَنَى وَمُنْجِدَاتِ
هَاتِ زِدْنِي مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ	لِي وَدَعْنِي مِنْ دِجَالَةٍ وَالْفُرَاتِ
وَلِيَ إِلَى " بِالْجَزِيرَةِ وَالْجَلِيَّةِ	زَةِ فِيمَا اشْتَهَيْتُ مِنْ لَذَائِ
بَيْنَ رَوْضِ حَكِّي ظَهْوَرَ الطَّوَاوِي	سِ وَجَوْ حَكِّي بِطُونِ الْبُرَاةِ
حَيْثُ مَجْرَى الْخَلِيجِ كَالْحَيَّةِ الرِّةِ	طَاءَ بَيْنَ الرِّيَاضِ وَالْجَنَّاتِ

وَالْقَائِلُ :

وَلَمْ أَرْ مِصْرًا مِثْلَ مِصْرَ تَرَوْقُنِي
وَلَا مِثْلَ مَا فِيهَا مِنَ الْعَيْشِ وَالْخَفِضِ
وَبَعْدَ بِلَادِي فَالْبِلَادُ جَمِيعُهَا
سَوَاءٌ ، فَلَا أُخْتَارُ بَعْضًا عَلَى بَعْضِ

والقائل :

أأرحل عن مصر وطيب نعيمها
وأترك أوطاناً تراها إن شقي
بلاد تروق العين والقلب بهجة
وتتجمع ما يهوى تقي وغمايق

وهو الذى يقول أيضا :

سقى وادياً بين العريش وبرقة
وحيا النسيم الرطب عني إذا سرى
بلاد متى ما جئتها جئت جنة
تمثل لى الأشواق أن تراها
فيا ساكني مصر تراكم عليهم
وما فى فؤادى موضع لسواكم
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا
على بذاك اليوم صوم نذرته
من الغيث هطال الشايب دتان
هنا لك أوطاناً اذا قيل أوطان
لعينك منها كلما شئت رضوان
وحصباءها مسك يفوح وعقيان
بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
فتمداً أحشاء وترقأ أجفان
وعندي على رأى التصوف شكران

ومن كان هذا هتافه بحب مصر فهو مصرى وإن كان مسقطه

رأسه بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له .

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ — (٢٧ فبراير

سنة ١١٨٦) . وتوفى قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من

سنة ٦٥٦ — (٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨) بوباءٍ حدث بمصر والقاهرة
ذلك العام ، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بتربته في القرافة
الصغرى غير بعيد من قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه في جهتها
القبليّة .

ونشأ البهاء زهير في مدينة قوص بالصعيد الأعلى كما ذكره
السيوطي في "حسن المحاضرة" . ولم يذكر ابن خلدون في ترجمته
الطويلة للبهاء زهير نسبته الى قوص ، لكنه ذكر في ترجمته لجمال الدين
ابن مطروح أنه كان بين الاثنين صحبةً قديمةً من زمن الصبا ،
وإقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين ، وليس بينهما
فرق في أمور الدنيا ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك
المودة . وابن مطروح من مدينة أسيوط . وقوص يومئذ هي أكبر
مدن الصعيد ، وليس بأرض مصر بعد القسطنطينية أعظم منها ،
وهي باب مكة واليمن والنوبة وسواكن ، حفلة الأسواق ، متسعة
المرافق ، فيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن
والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمامات
 والمدارس والبساتين ، ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار
والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين
والإسكندرانيين ومن يتصل بهم ، منها يذهبون الى جدة واليهما
انقلابهم في صدورهم من الحج .

وقوص من قديم الزمان منبع العلم والعلماء . ويقول صاحب
كتاب "الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد"
وهو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى
المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) : إن بقوص ستة عشر مكاناً للتدريس

ولم يرد للبهاء زهير ذكر في كتاب الأدفوى إلا عرضاً

ولم يحدثنا أحد ممن ترجموا للبهاء زهير عن سيرة أبيه ، غير أننا
وجدنا في نسخة خطية قديمة بدار الكتب المصرية لديوان شعر
البهاء زهير — رقم ٢٠٥١ أدب — وصف أبيه « بالعارف محمد
قدس الله روحه » ، وينعت بذلك في العادة أهل الصلاح والتقوى .
وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص في تاريخ غير
معروف ، إلا أن كلام المؤرخين ، كابن خلكان ، يفيد أن البهاء
زهيراً قضى زمن صباه في الصعيد ، ونشأ الود بينه وبين ابن مطروح
في ذلك العهد .

وربما يسبق الى الظن أن البهاء زهيراً كان طفلاً حين هاجرت
أسرته الى وادى النيل ، لكنا نجد في شعره قصيدتين يذكر فيهما
عهده بالحجاز . أقما أولاهما فهى :

أحِنَّ الى عهدِ المحَصِّبِ من مَنَى	وعيش به كانت تَرِفُ ظِلَالُهُ
ويا حَبَّذا أمواههُ ونسيمهُ	ويا حَبَّذا حصباؤهُ ورمالُهُ

ويا أَسْفَى إِذْ شَطَّ عَنِ مَزَارِهِ
وَكَمْ لِي بَيْنَ الْمَرْوَتَيْنِ لُبَانَةٌ
مُقِيمٌ بَقْلِي حَيْثُ كُنْتُ حَدِيثُهُ
وَأَذْكَرُ أَيَّامَ الْحِجَازِ وَأُنْثَى
وَيَا صَاحِبِي بِالْخَيْفِ كُنْ لِي مُسْعِدًا
وَاخْذُ جَانِبَ الْوَادِي كَذَا عَنْ يَمِينِهِ
هَنَّاكَ تَرَى بَيْتًا لَزِينٍ مَشْرِقًا
فَعَرَّضْ بَذَكَرِي حَيْثُ تَسْمَعُ زَيْنَبُ
عَسَاهَا إِذَا مَا مَرَّ ذَكَرِي بِسَمْعِهَا
ويا حَزَنِي إِذْ غَابَ عَنِّي غَزَالُهُ
وَبَدْرُ تَمَامٍ قَدْ حَوَّثَهُ حِجَالُهُ
وَبَادٍ لِعَيْنِي حَيْثُ سَرَتْ خِيَالُهُ
كَأَنِّي صَرِيحٌ يَعْتَرِيهِ خَبَالُهُ
إِذَا آنَ مِنْ بَيْنِ الْجَحِيحِ ارْتَحَالُهُ
بِحَيْثُ الْقَنَآ يَهْتَزُّ مِنْهُ طَوَالُهُ
إِذَا جِئْتُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ جَلَالُهُ
وَقُلْ لَيْسَ يَخْلُو سَاعَةً عَنْكَ بِأَلُهُ
تَقُولُ : فَلَانٌ عِنْدَكُمْ كَيْفَ حَالُهُ

والقصيدة الثانية هي :

سَقَى اللَّهُ أَرْضًا لَسْتُ أَنْسَى عَهْدَهَا
ويا طُولَ شَوْقِي نَحْوَهَا وَحَنِينِي
مَنَازِلُ كَانَتْ لِي بِهِنَّ مَنَازِلُ
وَكَانَ الصَّبَا إِلْفِي بِهَا وَقَرِينِي
تَذَكَّرْتُ عَهْدًا بِالْمَحْصَبِ مِنْ مَنِي
وَمَا دُونَهُ مِنْ أَبْطَحٍ وَحَجُونِ
وَأَيَّامَنَا بَيْنَ الْمَقَامِ وَزَمْنِمِ
وَإِخْوَانَنَا مِنْ وَافِدٍ وَقُطَيْنِ

زَمَانٌ عَهْدَتْ الْوَقْتَ لِي فِيهِ وَاسِعًا
كَمَا شَأْتُ مِنْ جَدِّ بِهِ وَمُجُونٍ
إِذِ الْعَيْشُ نَضَّرَ فِيهِ لِلْعَيْنِ مَنَظَرَ
وَإِذْ وَجْهُهُ غَضُّ بِغَيْرِ غُضُونٍ

وليس ذكريات طفل هذه الذكريات التي يحن إليها
زهير إلى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بد أن يكون شاعرنا جاء
إلى قوص قتي مستكملاً .

قال المؤرخون : وانتقل إليها زهير من قوص بعد أن رُبِّيَ
فيها وقرأ الأدب وسمع الحديث وبرع في النظم والنثر والترسل ،
ووصل إلى القاهرة فاتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبي الفتح
نجم الدين أيوب في حياة أبيه الكامل أيام كان نائباً عنه .

ويظهر أن إليها زهيراً كان اتصل قبل ذلك بخدمة الأمير
مجد الدين إسماعيل بن اللطفي الذي هنأه شاعرنا سنة ٦٠٧ لتوليّه
أعمال القوصية بقصيدة هي أول مديحه — كما في طبعة پامر —
مطلعها :

تَمَلَّيْتُهُ يَا لَابِسَ الْعِزِّ مَا بَسَا وَهَنَّتُهُ يَا غَارِسَ الْجُودِ مَغْرَسَا
ومنها :

به أصبحت قوص إذا هي فاحرت
أعزّ قبيل في الأنام وأنفسا

ومنها :

لقد شرفت منه الصعيدَ ولأيةً وأصبح واديه به قد تقدّسا
ونجد للبهاء زهير قصائد في مدح هذا الأمير يلتمس في بعضها
العوذ منه ، كقوله :

عسى نظرة من حسن رأيك صاففة
تسوق الى جذبي بها الماء والكلا
فهاأنذا أشكو الزمان وصرّفه
وتأنف لي عليك أن أتبدّلا
مقيم بأرض لا مقام بمثلها
ولولاك ما أنحرت أن أتحوّلا
بخدلي بحسن الرأي منك لعاني
أرى الدهر مما قد جرى متنبّلا
وهل كنت ألا السيف خالطه الصدى
فكنت له ياذا المواهب صيقّلا

ونجد في ديوان البهاء زهير مدحا للا مير وتهنئة بشهر الصوم
سنة ٦٠٩ في قصيدة تفيض بالشكر والثناء ، منها :

مولىّ بدأ من غير مسألة بها جاز المسمى كرمًا وعاد كما بدأ
وأنا لجودًا لا السحاب ينيله يوما وإن كان السحاب الأجودا

وفي قصائد أخرى مدح وثناء أيضا، كالقصيدة التي مطلعها :

لها خَفَرٌ يَوْمَ اللِّقَاءِ خَفِيرُهُمَا فَمَا بِالْهَذَا ضَنْتُ بِمَا لَا يَضِيرُهُمَا
وما نالني من أنعم الله نعمةً وإن عَظُمْتُ إِلَّا وَأَنْتَ سَفِيرُهُمَا
ومن بدأ النعمى وجاد تَكْرُمًا بأولها يَرْجَى لَدَيْهِ أَخِيرُهُمَا

ثم نجد بعد ذلك شعرا للبهاء زهير في مدح الأمير مجد الدين اللطىّ ينم عن شكوى وعتب . وفي بعض القصائد تصريح بأن البهاء زهيراً كان كاتباً للأمرئ ثم انفصل من خدمته . ففي سنة ٦١٩ أو سنة ٩١٢ (على نسختين مختلفتين من نسخ الديوان أرجح أولاهما) قال البهاء زهير في الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللطىّ قصيدته التي أولها :

لنا عندكم وعدٌ فهَلَّا وَفَّيْتُمْ وقاتم لنا قـولاً فهَلَّا فَعَلْتُمْ
حَفِظْنَا لَكُمْ وَدًّا أَضَعْتُمْ عَهْدَهُ فشتانَ في الحالين نحن وأنتم

ومنها :

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى إلى أى قومٍ بعدكم أتيتُمْ
أَلَا إِنَّ إِقْلِيًّا نَبَتْ بِى دَارُهُ وإن كَثُرَ الإِثْرَاءُ فِيهِ لَمُعْدَمُ
وإن زماناً أَلْجَأْتَنى صرُوفُهُ فحاولتْ بَعْدَى عَنْكُمْ لَمُدَّمُ
وأعلم أننى غالط فى فراقكم وأنكم فى ذاك مشلى وأعظمُ
فلا طاب لى عنكم مُقَامٌ بِمَوْطِنٍ ولو ضَمَّنِ فِيهِ الْمَقَامُ وَزَمَنُ

ومثلك لا يأسى على فقد كاتب
ومن ذا الذي تُدنيه منك وتصطفني
ومن ذا الذي تُرضيك منه فطانة
وبما كل أزهار الرياض أريجة
ولمكنه يأسى عليك ويندم
فيكتب ما توحى إليه ويكتب
تقول فيدري أو تُشير فيفهم
وما كل أطياف الفلا تترنم

ومن قصائده التي تنم عن العتب قصيدة مطلعها :

أعلمتم أن النسيم إذا سرى
نقل الحديث إلى الرقيب كما جرى

ومنها :

مولاي مجد الدين عطفاً إن لي
يا من عرفت الناس حين عرفته
خلق كماء المزن منك عهدته
مولاي لم أهرج جنابك عن قلبي
وكفرت بالرحمن إن كنتُ أمراً
ولحبة في مثلها لا يُمتري
وجهلتهم لما نبأ وتنكراً
ويعز عندي أن يقال تغيراً
حاشى من هذا الحديث المفتري
يرضى لما أوليته أن يكفراً

وقال البهاء زهير أيضاً يمدح هذا الأمير وقد انفصل من

خدمته :

آياتُ مجدك ما لها تبديل
أسفني على زمنٍ لديك قطعتُه
وإذا انتسبتُ بخدمتي لك سابقاً
هذا هو الأدب الذي أنشأته
وعلو قدرك ما اليه سبيل
وكأني للفرقدين تزيل
فكأنها لي معشر وقيل
فاهتز منه روضه المطول

وربما دلّ كل ذلك على أنّ هجرة البهاء زهير من قوص الى القاهرة كانت بعد انفصاله من خدمة اللطفي بعد سنة ٦١٩ هـ ، ولعل هجرته للاتصال بخدمة الملك الصالح كانت فيما حوالى سنة ٦٢٢ هـ ، فإننا نجد له قصيدة فى هذا العهد مدح بها الصالح ، ستأتى الإشارة اليها ، وقد يكون اتصل قبل الملك الصالح بأخيه الملك المسعود صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن الملك الكامل ، فإن فى ديوان شاعرنا قصيدة مدح بها هذا الملك لما قدم من اليمن سنة ٦٢٠ هـ كما فى طبعة ياجور ، وأول هذه القصيدة :

لکم أينما كنتم مكانٌ وإمكانٌ ومُلكٌ له تَعْنُو الملوك وساطانُ

ومنها :

هو الملك المسعود رأياً ورايةً له سَطَوَةٌ ذَلَّتْ لها الإنسُ والجَانُ
غداً ناهضاً بالملك يحمل عبئه وأقرانه ملك المكاتبِ ولدانُ
وتَهْتَزُّ أعوادُ المنابر بأسمه فهل ذكرت أيامها وهى قُضبانُ

ومنها :

أعلل نفسى بالمواعيد والمنى وقد مرّ أزمانٌ لذاك وأزمانُ
أرى أنّ عِزِّي من سواك مَذَلَّةٌ وإنّ حَبائِى من سواك لِحِرمانُ
وليس غربياً منّ اليه اغترابه له منه أهلٌ حيث كان وأوطانُ
وقد قرب الله المسافة بيننا فيها أنا يحوينى وإيّاها إيوانُ

وقال يمدحه بعد رجوعه من اليمن ، وأرسل بها من قوص الى

مصر سنة ٦٣١ :

أُتْمَكْ وَلَمْ تَبْعُدْ عَلَى عَاشِقٍ مِصْرِيٍّ وَوَأَفَاكَ مُشْتَقًّا لَكَ الْمَدْحُ وَالشُّعْرُ
إِلَى الْمَلِكِ الْمَسْعُودِ ذِي الْبَاسِ وَالنَّدَى فَأَسْيَافُهُ حَمَرٌ وَسَاحَاتُهُ خَضَرُ

وتوجه البهاء زهير في خدمة الملك الصالح الى البلاد الشرقية الى أن ملك الصالح مدينة دمشق ، فانتقل اليها في خدمته ، وأقام كذلك الى أن جرت الكائنة المشهورة على الملك الصالح وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو بنابلس وتفرقوا عنه ، وقبض عليه الملك الناصر داود صاحب الكرك وأعتقله بقلعة الكرك . وأقام بهاء الدين زهير بنابلس وفيما لصاحبه ، ولم يتصل بغيره ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصرية ، فعاد اليها في خدمته ، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ .

ويقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة : إن البهاء زهيراً دام في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الى أن توفى الملك الصالح .

وفي صبح الأعشى : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين تولى ملك مصر ولى ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيراً ، ثم صرفه وولى بعده صاحب نخر الدين بن لقمان الأسعردى ، فبقى الى انقراض الدولة الأيوبية .

وفي حسن المحاضرة : ثم وُلِّي ديوانَ الإنشاءِ صاحبُ
بهاء الدين زهيرُ الشاعرُ المشهورُ ، ثم صُرِف ووُلِّي بعدهُ صاحبُ
نحرُ الدين إبراهيم بن لقمان الأسعدي وأقام إلى انقراض الدولة الأيوبية .
واعلَّ الصحيح أن بهاء الدين زهيراً بقي في خدمة الملك الصالح
إلى أن مات الملك الصالح في شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، فقد ذكر المؤرخون
أنه في سنة ٦٤٦ هـ حدث للملك الصالح نجم الدين ورم في باطن ركبته
تكون منه ناسور عسر برؤه وانضاف إليه قرحة في الصدر ، فلزم
الفراش ، إلا أن علوقه حتمته اقتضى مسيره من ديار مصر إلى الشام ،
فسار في حقة ونزل بقلمة دمشق ، ثم خبره مُخبر أن رُؤادِ فرنس عازم
على المسير إلى أرض مصر وأخذها ، فسار السلطان من دمشق
وهو مريض في حقة ونزل بأشمرم طناح في المحرم سنة ٦٤٧ هـ وأعد
العدة للكفاح عند دمياط ، وفي أواخر صفر وردت جيوش العدو ،
وبعث ملكهم إلى السلطان كتاب تهديد ووعيد ، هذا نصه :
« أقا بعدد ، فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية ، كما
أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة الحمدية .

وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه
إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال
(١) روادفرنس أوريد فرانس : تعريب للفظ الفرنسى Roi de France
بمعنى ملك فرنسا . ومؤرخو العرب يجعلون ذلك علماً على لويس التاسع الذي كان يقود
الحرب الصليبية السابعة .

ونزقل النساء ونستأثر بالبنات والصبيان ونُحلي منهم الديار؛ وأنا قد
أُديتُ لك الكفاية، وبذلتُ لك النصيحة إلى الغاية والنهاية؛ فلو
حلفتُ لي بكلّ الإيمان، وأدخلتُ على القسّس والرهبان، وحملتُ
قُدّامى الشمع طاعةً للصليب؛ لكنتُ واصلًا إليك، وقاتلك في أعزّ
البقاع عليك؛ فإما أن تكون البلادُ لي فيا هدية حصلتُ في يدي،
وإما أن تكون البلادُ لك والغلبة علىّ، فيدك اليمنى ممتدةً إلىّ؛ وقد
عرفتك وعرفت ما قلتُ لك، وحدّرتك من عساكر حضرت
في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون
إليك بأسياف القضاء“ .

فلما قرئ الكتابُ على السلطان وقد اشتدّ به المرض بكى
وآسَرجع؛ فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

”بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله
وآله وصحبه أجمعين . أما بعدُ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد
فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما
نُقبل منا قرنٌ إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأيت
عينك أيها المغرورُ حدّ سيوفنا وعِظَمُ حروبنا، وفتحنا منكم الحصون
والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل؛ لكان لك أن
تعصّ على أناملك بالندم، ولا بدّ أن تزلّ بك القدم، في يوم أقوله
لنا وآخرك عليك؛ فهناك تسيء الظنون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) . فإذا قرأت كتابي هذا فتكون منه على أول
سورة النحل : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ، وتكون أيضا على آخر
سورة ص : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ونعود الى قوله تعالى وهو
أُصْدِقُ الْقَائِلِينَ : « وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً . بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » . وقول الحكماء : « إِنَّ الْبَاغِيَ لَهُ مَصْرَعٌ »
وَبَغْيُكَ يَصْرَعُكَ ، وإلى البلاء يُسَلِّمُكَ . والسلام “ .

فالبهاء زهير كان في خدمة الملك الصالح في أواخر صفر من
سنة ٦٤٧ ، وتوفي الملك الصالح في أواسط شعبان من تلك السنة
بعد أشهر قضاها في مرض مستمر وفي جهاد لم يكن كله مظفرا .
بعد هذا الفرض الذي أدى بنا الى ترجيح أن البهاء زهيراً
ظل متصلاً بالملك الصالح الى أن مات الملك الصالح ، وجدنا
في كتاب تاريخ العيني^(١) (الموجود في دار الكتب المصرية ، بالفتوغرافيا
ج ١٩) ما يدل صريحاً على أن الملك الصالح صرف البهاء زهيراً من
خدمته قبل موته بقليل ، فرأينا أن ننقل هذا النص عن نسخة
دار الكتب المصرية :

“ قلت : وذكر القطب اليوناني في كتابه الذيل على مرآة
الزمان ، قال في ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح ، قال : فلما
خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار الى الديار المصرية
(١) هو كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني المتوفى

كان بهاء الدين زهير المذكور في صحبته ، فأقام عنده في أعلى منزلة وأجل مرتبة ، هو المشار اليه في كتاب الدرج والمتقدم عليهم ، وأكثرهم اختصاصا بالملك الصالح واجتماعاً به . وسيره رسولاً في سنة خمس وأربعين وستمائة الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطالب منه إيفاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل اليه ، فلم يجب الى ذلك وأنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار وأعظمها واستصعبها ، وقال : كيف يسعني أن أسير عمه اليه وهو خال أبي وكبير البيت الأيوبي حتى يقتله وقد استجار بي ! وأشهد أنني لا أفعلها أبداً . ورجع البهاء زهير الى الملك الصالح نجم الدين هذا بهذا الجواب ، فعظم عليه وسكت على ما في نفسه من الحق . وقبل موت الملك الصالح نجم الدين أيوب بمديدة يسيرة ، وهو نازل على المنصورة ، تغير على بهاء الدين زهير وأبعده لأمي لم يطلع عليه أحد . قال : حكى لي البهاء زهير أن سبب تغيره عليه : أنه كتب عن الملك الصالح كتاباً الى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب الى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « أنت تعرف قلّة عقل ابن عمي ، وأنه يحب من يصله ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسير الكتاب الى البهاء زهير ليغيّره والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين

إبراهيم بن لقمان فأمره بختمه بختمه وجهزه إلى الناصر على يد
نجاب ولم يتأمله ، فسافر به النجّاب لوقته . واستبطأ الملك الصالح
عود الكتاب إليه ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيرا بعد ذلك
وقال له : ما وقفت على ما كتبتّه بخطي بين الأسطر ؟ قال البهاء
ومنّ يحسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه
وأخبره أنه سسير الكتاب مع النجّاب ، فقامت قياة السلطان
وسيروا في طلب النجّاب فلم يدركوه ، ووصل الكتاب الى الملك
الناصر بالكرك ، فعظم عليه وتألم له .

ثم كتب جوابه الى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب
المؤلم ويقول له فيه : « والله ما بي ما يصدر منك في حق ، وإنما بي
اطّلاع كتابك على مثل هذا » ، فعزّ ذلك على الملك الصالح وغضب
على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك الى
نفسه ولم ينسبه لكتاب الكتاب وهو نخر الدين بن لقمان
رحمه الله تعالى .

قال : وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة
على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يُقبل عثرة ، ولا يقبل
معدرة .

ويلاحظ أن ديوان البهاء زهير خلو من رثاء الملك الصالح وخلو
من مدائحه إلا قليلا .

كان بهاء الدين زهير كاتب ديوان الإنشاء في عهد الملك الصالح أو كاتب السر : وديوان الإنشاء في عهد الدولة الأيوبية كان عظيمًا معتنى به ، وكان لا يتولاه إلا أجلّ كتاب البلاغة ، ومتولّى رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة

ومن وظيفة كاتب السرّ قراءة الكتب الواردة على السلطان ، وكتابة أجوبتها ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل ، والتوقيع عليها ، وتصريف المراسيم صدورًا وورودًا .

وكانت تجمع كتابة السرّ إلى الوزارة تارةً ، كما فعل ذلك صلاح الدين الأيوبي مع القاضي الفاضل ، وتفصل عنها أخرى كما استمر عليه العمل بعد القاضي الفاضل .

ويقول بعض المؤلفين : إن بهاء الدين زهيرا كان وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيوب ويلقبونه بالصاحب بهاء الدين زهير . والصاحب لقب للوزير إذا كان من أرباب الأقلام . على أن بهاء الدين زهيرا وإن لم يكن وزيراً فقد كانت رتبته ، وهي رئاسة ديوان الإنشاء ، تُقاسم الوزارة جاهها ومجدها في عهد الأيوبيين ، وربما كانت أوفى منها مجداً وجاهاً . ومع هذه المكانة العالية فإن البهاء زهيرا مات فقيراً . وفي آخر عمره ، كما في تاريخ أبي الفداء وتاريخ ابن الوردي ، أنكشف حاله حتى باع موجوده وكتبه وأقام

في بيته بالقاهرة حتى أدركه أجله . وأجمع المترجمون له على أنه كان ذا مروءة ولطيف ومكارم أخلاق ، وقد كان متمكنا من صاحبه الملك الصالح ولا يتوسط عنده إلا بالخير، ونفع خلقا كثيرا، وبلغ من الرفعة ما لم يباغ به غيره .

والقارئ لشعر البهاء زهير يحس بما في نفس الشاعر من رقة وحسن ذوق وبعد عن الشر والأذى . ومما يدل على لطيف روحه أنه قلما يهجو بغير الوصف بالثقل فيقول :

وَتَقِيلُ كَأَنَّمَا	مَلِكُ الْمَوْتِ قُرْبُهُ
لَيْسَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ	مَنْ تَرَاهُ يَحِبُّهُ
أَوْ ذَكَرْتَ اسْمَهُ عَلَى الْمَا	لَمَّا سَاغَ شَرْبُهُ

ويقول :

وَجَلِيسٍ لَيْسَ فِيهِ	قَطُّ مِثْلُ النَّاسِ حَسُّ
لِي مِنْهُ أَيْمَانُ كَذْ	مَتُّ عَلَى رَغْمِي حَبْسُ
مَا لَهُ نَفْسٌ فَتْنَهَا	هـ ، وَهَلْ لِلصَّيْخِرِ نَفْسُ
إِنَّ يَوْمًا فِيهِ أَلْقَا	هـ لَيْسَ هُوَ نَحْسُ

ويقول :

رُبَّ ثَقِيلٍ لِبُغْضِ طَاعَتِهِ	أَخْشَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ أَجَلِي
وَكَلِمَا قُلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ	أَلْقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

ويقول :

يا ثَقِيلًا لِي مِنْ	رُؤْيَيْهِ هُمْ طَوِيلٌ
وَبَغِيضًا هُوَ فِي الْحَلَا	بِقِي شَجِيٍّ لَيْسَ يَزُولُ
كُلُّ فَضِيلٍ فِي الْوَرَى	أَضْعَافُهُ فِيكَ فَضُولُ
كَيْفَ لِي مِنْكَ خَلَاصٌ	أَيْنَ لِي مِنْكَ سَبِيلُ
حَارَ أَمْرِي فِيكَ حَتَّى	لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ
أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلٌ	أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلُ

ويقول :

والله لو لا خِيفَةُ التَّثْقِيلِ	زُرْتُكَ فِي الضَّحَى وَفِي الْأَصِيلِ
لَكُنْ أَرَى التَّخْفِيفَ عَنْ خَلِيلِي	وَلَسْتُ فِي الْعِشْرَةِ بِالثَّقِيلِ

ويقول :

وِثْقِيلٍ مَا بَرَحْنَا	نَتَمَتَّى الْبَعْدَ عَنْهُ
غَابَ عَنَّا فَقْرُحْنَا	جَاءَنَا أَثْقَلُ مِنْهُ

والقارئ لذيوانه يشعرُ بالباءِ وعِزَّةٍ لم تُبَاهِما إلا صولةُ الفقير
في عهد الشباب الأول لشاعرنا ، حينما كان يلتبس من الأمير اللطيف
وغيره عونًا ، في طهجة تكاد تكون تذللًا لم يعرفه بعد ذلك شعرُ
البهاء زهير

وإذ قد وصلنا إلى شعر البهاء زهير فقد وصلنا إلى الجانب
المهم من بحثنا ، فإن البهاء زهيرًا الشاعر المصري هو مدار حديثنا

لا البهاء زهيراً من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولقد كان الشعر العربي قد جمد في صورته وأساليبه وموضوعاته في القرون الأخيرة من العصر العباسي . بتحكم الأعاجم في شؤون الدولة وقلة تشجيعهم للشعراء ، وبتوالي الفتن على الممالك الإسلامية ، ثم أنتعش الشعر في وادي النيل مدة الفاطميين (٣٥٨ — ٥٧٦) الذين كان لهم باللغة العربية عناية عظيمة ، وفي عهد الأيوبيين (٥٧٦ — ٦٥٠) الذين راجت في عهدهم القصير فنون العلم والأدب وازدهرت المدنية .

وفي هذا العهد نشأ البهاء زهير ووسّع شعره كلّ ما أنتجت مدينة ذلك العهد من ثمرات .

قال هيار في كتابه الأدب العربي :

”إن شعر بهاء الدين زهير المهدي كاتب السرّ في الدولة المصرية يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التي صقلتها مدينة خلفاء صلاح الدين الزاهية“ .

وفي ترجمة ابن خلكان للبهاء زهير ما يدلّ على أن شعر بهاء الدين زهير كان مجموعاً في حياته متداولاً بأيدي الناس . قال ابن خلكان في تلك الترجمة :

” وشعره كلّ لطيف ، وهو كما يقال السهل الممتنع . وأجازنى رواية ديوانه ، وهو كثير الوجود بأيدي الناس ... الخ “ .

” وفى النسخ الخطّية الموجودة بدار الكتب المصرية من هذا الديوان ما يدل على أنّ بعض تلامذته جمع شعره وزاد فيه على ما فى ديوانه . ففى آخر صحيفة من نسخة خطّية (رقعها ٢٠٥١ أذّب) ما نصه :

” قال جامع هذا الديوان ، وهو تلميذ الشيخ : هذا آخر ما وجدت من شعر أبى الفضل زهير بن محمد بن على المهلبى رحمه الله وأثابه الجنة بمَنّهِ وكرمه “ .

وفى هذه النسخة مقدّمة جاء فيها :

” كل ما كُتِب فى هذا الديوان وقلْتُ قال رحمه الله ، فإنى كتبتُه بعد موته رحمه الله بدمشق المحروسة حماها الله تعالى فى جمادى الأولى من شهر سنة سبع وستين وستمائة ولم أسمع منه “ اهـ .

وتوجد نسخة خطّية أخرى أوّلها :

” أقما بعد حمد الله على مزيد آلائه ، وشكره على ما تفضل به من جزيل جزائه “ وبعد كلام : ” أحببت أن أجمع ما وجدت من كلامه مستعيناً بالله “ . كتبت هذه النسخة سنة ١٠٠٢ وليس

فيها ما يدل على اسم جامعها إلا أن أخرها : ”من نعم الله على العبد
الفقير محمد بن محمد اليماني“ . وورد في طبعة بلبر ، التي سيأتي
ذكرها ، ببعض الهوامش : ”أن الذي جمع ديوان بهاء الدين زهير
بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك المذكور في نسخة حسنة
موجودة بمكتبة اكسفورد عليها اعتماد الطابع في التصحيح
وشرف الدين هذا هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الوفاء بن
خطاب المعروف بابن الخلاوي الموصلي الأصل الدمشقي المولد
والدار .

وقد ذكر ابن خلكان أن شرف الدين المذكور لقي البهاء زهيراً
في بلاد الشام ومدحه . وفي الديوان قصيدة أرسلها البهاء زهير
إلى شرف الدين تعزية له في أخيه سنة ٦٤١ هـ .

وقد طبع ديوان البهاء زهير منذ عهد قديم بمصر وأعيد طبعه
مراراً ، وطبع في بيروت وغيرها . وأول طبعته طبعة حجرية بمصر
سنة ١٢٧٧ هـ وتاليها طبعة حجرية أخرى سنة ١٢٧٨ هـ بمصر .

وطبع هذا الديوان بكبرج سنة ١٨٧٦ في مجلدين : الأول
منهما فيه الديوان مع تعليقات وهوامش ، وفي أوله مقدمة تشتمل
على ما للشعر من منزلة سامية عند العرب ، وعلى ترجمة صاحب
الديوان . والثاني ترجمة للديوان بالانجليزية منظومة شعراً وعليها

شروح ، طبعه أدور هنرى بالمردرس اللغة العربية بمدرسة
كبرج الذى قتله بعض العرب ببادية طورسينا سنة ١٨٨٢ أثناء
الحوادث العرابية .

ويقول صاحب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » : إن
ديوان البهاء زهير طبع أيضا فى باريس سنة ١٨٨٣ مع القراءات
المتنوعة للثن الأصل العربى .



كانت للشعر نهضة ، كما قلنا ، فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ،
والبهاء زهير من أئمة النهضة الشعرية فى عصر بنى أيوب .

وعبقريّة البهاء زهير فى هذه النهضة لتجلى من نواحي ثلاث :

(١) ناحية الأسلوب .

(٢) » الأوزان .

(٣) » الموضوعات التى يتناولها الشعر .

الناحية الأولى ناحية الأسلوب : كان عصر البهاء زهير من جهة
اللغة شبيها بعصرنا هذا ، ففيه طبعة يستخدمها الناس فى معاشهم
ومعاملاتهم ، ويعبرون بها عن أفكارهم وعواطفهم فى حياتهم
اليومية ، ولهم طبعة أخرى لا يلجئون إليها إلا اذا عالجوا النظم
أو حاولوا الإنشاء . كانت لغة الحياة فى شتى مظاهرها لغة ملحونة ،
ولكنها تسير الحياة فى حركتها وانتقالها ، وتصل بسهولة الى أفهام

العامة والخاصة. وكانت لغة الشعر والكتابة لغةً مستقيمة الإعراب
تسامى عن التبذل للعامة ، وتحاول أن تتصل بأساليب الشعر القديم
والنثر القديم ، باعتبار تلك الأساليب قوالب ينبغي أن يُصَبَّ فيها
شعرٌ ما يتلو من العصور ونثره . ووجد من الشعراء والكتاب من
كان همه أن يزيد لغة القريض والإنشاء تعاليا على لغة العامة :
باختيار العبارات الخُزلة القليلة الاستعمال البعيدة عن الابتذال ،
وبالتأني في تزيين الأساليب الشعرية والنثرية بالمحسنات البديعية
التي قد يكون لبعضها تقدير من الجهة الصناعية ، لكنها بعيدة عن
جمال البيان والوضوح .

أما البهاء زهير فجاء بمذهب جديد ، فجعل لغة الحياة الحارّة
في بساطتها ومرونتها لغةً للشعر بعد تطبيقها على قواعد الإعراب
وتقويم ما فيها من اللحن جهد المستطاع ، وجرى على ذلك فيما كانت
تجيش به نفسه وتفيض به عواطفه من فنون الشعر .

وشعر البهاء زهير كما هو مرآة صادقة لعصره بما فيه من فيض
الطبع والبعد عن التكلف ، هو أيضا مرآة لعصره من حيث اللغة
والتعبير . والروح المصري يتجلى في هذا الشاعر القوصي الصعيدي
بأكثر مما يتجلى في أيّ شاعر مصري عرفناه في القديم
والحديث .

وللبهاء زهير في بعض قصائده تشويق إلى الصعيد :

أَحِنَّ إِلَيْكُمْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ	وأَهْدِي بَكُمْ فِي يَقْظَتِي وَمَنَامِي
فَلَا تُتَكْرُوا طِيبَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى	إِلَيْكُمْ فَذَلِكَ الطَّيِّبُ فِيهِ سَلَامِي
فَهَلْ عَائِدٌ مِنْكُمْ رَسُولِي بِفَرَحَةٍ	كِفْرَحَةٍ حُبْلَى بُشِّرَتْ بِغُلَامِ
وَيَرْتَاحُ قَلْبِي لِلصَّعِيدِ وَأَهْلِهِ	وَعَيْشٍ مَضَى لِي عِنْدَكُمْ وَمُقَامِ
وَأَهْوَى وَرُودَ النَّيْلِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ	يَمُرُّ عَلَى قَوْمٍ لَدَى كَرَامِ

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى في شعر البهاء زهير
نفحات مصريته في التعبير والذوق ، ودلائل ديمقراطيته في اللغة
وان كان أرسئقراطي المنازع والأخلاق .

على أننا نذكر لذلك نماذج نُحِيل على ديوانه لاستيفائها .
ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من نفحات المصرية في أسلوب البهاء زهير
كثرة الحلف في شعره ، فقامما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :
ووالله ما فارقتم من ملالة ووالله ما أحتاج أني أحلف

* * *

لَعَلَّكُمْ قَدْ صَدَّكُمْ عَنْ زِيَارَتِي	مَخَافَةُ أَمْوَاهُ لَدَمْعِي وَأَنْوَاءِ
فَلَوْ صَدَّقَ الْحُبُّ الَّذِي تَدَّعَوْنَهُ	وَأَخَاصَّتُمْ فِيهِ مَشَيْتُمْ عَلَى الْمَاءِ
وَإِنْ يَكْ أَنْفَاسِي خَشِيتُمْ لَهِيمًا	وَهَالِكُمْ نِيرَانُ وَجْدٍ بِأَحْشَائِي
فَكُونُوا رَفَاعِيَيْنَ فِي الْحُبِّ مَرَّةً	وَحَوْضُوا لَطْفِي نَارَ لَشَوْقِي حَرَاءِ
حَرِمْتُ رِضَاكُمْ إِنْ رَضِيتُ بغيركم	أَوْ اعْتَضْتُ عَنْكُمْ فِي الْجَنَانِ بِحُورَاءِ

قلبي لديك فكيف أذ * * *
مت على البعاد وكيف قلبي ؟

فيا صاحبي مالي أراك مفكراً * * *
وحَتَّامَ ، قُلِّ لي ، لا تزال كئيها

قال لي العاذل تسلو * * *
قلت للعاذل تتعب
أنا بالعاذل ألهو
أنا بالعاذل ألعب
ليس في العشاق إلا
من يغني لي وأشرب

أحدثه اذا غفل الرقيب * * *
وأسأله الجواب فلا يجيب
وأطمع حين أعطفه عساه
يلين لأنه غصن رطيب
ويخفق حين يبصره فؤادي
ولا عجب اذا رقص الطروب
فيا مولاي قل لي أي ذنب
جنيت لعلني منه أتوب
حبيب أنت قل لي أم عدو
ففعلك ليس يفعله حبيب

أنا فيما أنا فيه * * *
وعذولي يتعب
أنا لا أضغى لما قا
ل فيرضى أو فيغضب
يا حبيبي وندي
والليالي تتقلب
هات فيما نحن فيه
ودع العاذل يتعب

أرى قوماً بليت بهم * * *
نصبي منهم نصبي
فمنهم من ينافقني
فيكذب لي ويخلف لي

ويُلْزِمُنِي بِتَصَدِيقِ الَّذِي قَدْ قَالَ مِنْ كَذِبٍ
 وَذُو عَجَبٍ إِذَا حَدَّثَ
 بِهِ مَا شَعَبَانُ مِنْ رَجَبٍ
 وَمَا أَبْصَرْتُ أَحَقَّ مِنْهُ
 وَأَحَقَّ قَدْ شَقِيتُ بِهِ
 فَلَا يَنْفُكَ يَتَّبِعُنِي
 كَأَنِّي قَدْ قَتَلْتُ لَهُ
 لِأَمْرِ مَا صَحِبْتُهُمْ
 يَحْسَنُ عَقْلَنَا أَنَا
 وَكُنَّا قَدْ ظَنَّنَا الصُّفْ
 فَلَمْ نَظْفُرْ بِحَاجَتِنَا
 رَجَعْنَا مِثْلَ مَا رُحْنَا
 وَلَمْ نَرْجَعْ سِوَى التَّعَبِ

* * *

وَكُنْتُ لِمِيعَادِهَا مَتَرَقِّبًا
 تَقُولُ حَبِيبِي قُلْتُ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
 وَوَجْهًا مَصُونًا عَنْ سِوَايَ مُحِجَّبًا
 وَزَائِرَةٌ زَارَتْ وَقَدْ هَجَمَ الدَّجَا
 فِي رَاعِي إِلَّا رَخِيمٌ كَلَامُهَا
 فَقَبِلَتْ أَقْدَامًا لِغَيْرِي مَا مَشَتْ

(١) الحرب (بفتح الحين) : ذكر الحبارى ، والحبارى طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة برأسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كالون السمانى غالباً . وهو من الطيور الضعيفة ، ومن أمثالهم : " ما رأينا صقرا يرصده خرب " يضرب للشريف يحاول أن يقهره الوضع . (٢) الصفر : نوع من النحاس .

ولم ير عيني ليلةً مثلي ليالي
سأشكر كل الشكر إحسان محسن
حبيب لأجلى قد تعنى وزارني
فيا سهري فيها لقد كنت طيباً
تحيّل حتى زارني وتسبباً
وما قيمتي حتى مشى وتعذباً

✽ ✽ ✽

كم ذا التصاغر والتصابي
لم يبق فيك بقية
لا أفتضيك مودة
ما العيش إلا في الشبا
وانقد رأيتك في النقاب
وسألت عما تحته
وسمعت عنك قضية
هذا وكم من وقفة
واليوم قالوا حرة
وأردت أنطق بالحو
يا هذه ذهب الصبا
ما هذه شيم الحرا

✽ ✽ ✽

لا تطرح خامل الرجال فقد
فاليك في الرد وهو محقر
تحتاج يوماً الى كفايته
خير من الشئش عند حاجته

(١) والبيت في طبعة بلهر هكذا :
فالين في الرد وهو محقر

خير من اليس عند حاجته

* * *

يُعَاهِدُنِي لَا خَانِي ثُمَّ يَنْكُثُ
وَأُحْلِفُ لَا كَلِمَتُهُ ثُمَّ أَحْنَتْ
وَذَلِكَ دَأْبِي لَا يَزَالُ يُودَأُ بِهِ
فِيهَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَتَحَدَّثُوا
أَقُولُ لَهُ صِلْنِي ، يَقُولُ نَعَمْ غَدًا
وَيَكْسِرُ جَفْنًا هَازِنًا بِي وَيَعْبَثُ
وَمَا ضَرَّ بَعْضَ النَّاسِ لَوْ كَانَ زَارِي
وَكُنَّا خَلُونَا سَاعَةً تَحَدَّثُ
أَمْوَلَايَ إِنِّي فِي هَوَاكَ مَعَذِبُ
وَحَتَّامٌ أَبْقَى فِي الْعَذَابِ وَأَمَكْتُ
نَخَذُ مَرَّةً رَوْحِي تُرْحِنِي وَلَمْ أَكُنْ
أَمُوتُ مَرَارًا فِي النَّهَارِ وَأُبْعَثُ

* * *

صَدِيقٌ لِي سَازُكُهُ بِخَيْرٍ وَأَعْرِفُ كَنَّهُ بَاطِنِهِ الْخَبِيثَا
وَحَاشَا السَّامِعِينَ يَقَالُ عَنْهُ وَبِاللَّهِ اكْتُمُوا هَذَا الْحَدِيثَا

* * *

مَوْلَايَ مِنْ سَكْرِ الدَّلَالِ عَيْشُ سَتَ وَالسَّكَرَانُ عَابَثُ
وَنَكَثَتْ عَهْدًا فِي الْهَوَايِ مَا خِلْتُ أَنَّكَ فِيهِ نَاكِثُ
لَكَ لَا أَشُكُّ قَضِيَّةً أَنَا سَائِلٌ عَنْهَا وَبَاحِثُ

عَتَبَ الحَبِيبُ فلم أَجِدْ سَبَباً لَذاكَ العَتَبِ حَدَثُ
والْيَوْمَ لِي يَرْجَانِ لم أَرَهُ وَهَذَا الْيَوْمَ ثَالِثُ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ مِنْ تَغْيِيرِ الْحَوَادِثِ
وَيَلِدُ لِي العَتَبُ الَّذِي صَدَّقَ الْوَدَادِ عَلَيْهِ بَاعِثُ

* * *

وعَائِدٍ هُوَ سَقَمٌ لِكُلِّ جَسِيمٍ صَحِيحُ
لَا بِالْإِشَارَةِ يَدْرِى وَلَا الْكَلَامِ الصَّرِيحُ
وَلَيْسَ يَخْرُجُ حَتَّى تَكَادُ تَخْرُجُ رُوحُ

* * *

وَعَادَةٌ بِوَصَالِهَا مُسَامِحَةٌ تَحْفَظُ وَدَى مِثْلَ حَفِظِ الْفَاتِحَةِ
وَفَتْ بِوَعْدِ شَمِ قَامَتْ رَائِحَتُهُ فَيَا صَحَابِي فِي انْخِلَاطِوبِ الْفَادِحَةِ
هَبَّكُمْ رَحِمْتُ لِي نَفْسًا طَافِحَةً هَبَّكُمْ أَعْنَتُمْ بِدُمُوعِ سَاحِفَةِ
مَا تَفْعَلُ الشَّكْلَى بَنُوحِ النَّائِحَةِ

* * *

أَتَتَكَ وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرًا تَأَخَّرَتْ فَانَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصْفَحُ

* * *

أَيُّهَا الْغَافِلُ الَّذِي لَيْسَ مُتَجِدِّى كَثْرَةُ اللَّوْمِ فِيهِ وَالتَّوْبِيحُ
إِنَّهَا غَفْلَةٌ لَكَ الْوَيْلُ مِنْهَا مَا رَوَاهَا الرِّوَاةُ فِي التَّارِيخِ
وَكَمَا قِيلَ هَبْ بِأَنَّكَ أَعْمَى كَيْفَ تَخْفَى رَوَائِحَ الْبِطِّيخِ

* * *

وَحَيْثَمَا كُنْتَ كُنْتُ مُوَلَّى وَحَيْثَمَا كُنْتُ كُنْتُ عَبْدُكَ

* * *
ويا ليت عندي كل يوم رسولكم
وأني لأرعاكم على كل حالة
عليكم سلام الله والبعْدُ بيننا
فأسكنه عيني وأفرشه خدي
وحقكم أتم أعز الوري عندي
وبالرغم مني أن أسلم من بعد

* * *
بحق الله متع
فما أشوقني منك
فما تصلح للهزل
وماذا فيك من ثقل
فلا صبحت بالخير
بني من وجهك بالبعد
إلى الهجران والصد
ولا تصلح للجد
وماذا فيك من برد
ولا مسيت بالسعد

* * *
وليلة ما مثلها قط عهد
طلبت فيها مؤنساً فلم أجد
طالت فاماً صبحها فقد فقد
مثل حشا العاشق باتت تتقد
بت أقاسمها وحيداً منفرد
فتحبّل المرأة فيها وتلد

* * *
ووعدتني يوم الخمد
واذا اقتضيتك لم ترد
فأعد أياً ما تم
وتقول أوصيت الخطي
واذا أتكت على الخطي
س فلا الخميس ولا الأحد
عن قول إبي والله غد
وقد ضجرت من العدد
ب فهل نفوه من البلد
ب فإتكت على أحد

تَوَقَّ الْأَذَى مِنْ كُلِّ نَهْلٍ وَسَاقِطٍ * * *

فَكَمْ قَدْ تَأَذَّى بِالْأَرَاذِلِ سَيِّدُ * * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْثَ تُؤْذِيهِ بَقَّةٌ * * *

وَيَأْخُذُ مِنْ حَدِّ الْمُهَنَّدِ مِهْرِدُ * * *

هَذِهِ أَوَّلُ حَاجَاتِي إِلَيْكَ * * *

وَبِهَا أَعْرِفُ مَقْدَارِي لَدَيْكَ * * *

سَيِّدِي قَلْبِي عِنْدَكَ * * *

سَيِّدِي قُلُّ لِي وَحَدِّدْ * * *

أُتْرَى تَذْكُرُ عَهْدِي * * *

أَمْ تُتْرَى تَحْفَظُ وَدِّي * * *

قُمْ بِنَا إِنْ شِئْتَ عِنْدِي * * *

أَنَا فِي دَارِي وَحْدِي * * *

سَيِّدِي أَوْحَشْتَ عَبْدَكَ * * *

بَنِي مَتَى تُنْجِزُ وَعْدَكَ * * *

مِثْلَ مَا أَذْكُرُ عَهْدَكَ * * *

مِثْلَ مَا أَحْفَظُ وَدَّكَ * * *

أَوْ أَكُنْ إِنْ شِئْتَ عِنْدَكَ * * *

فَتَفْضُلُ أَنْتَ وَحَدَّكَ * * *

أَيْنَ مَوْلَايَ يَرَانِي * * *

وَدَمْعِي فَوْقَ خَدِّي * * *

وَجَلِيسَ حَدِيثِهِ * * *

لِلْمَسْرَاتِ طَارِدُ * * *

مِثْلُ لَيْلِ الشِّتَاءِ فَهْ * * *

وَأَثْقِيلُ وَبَارِدُ * * *

فَلَا تُرْخَصُوا وَدًّا عَلَيْكُمْ عَرَضُهُ * * *

وَحَقِّكُمْ عِنْدِي لَهُ أَلْفُ طَالِبٍ * * *

إِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَقَارِبِ فَعَلَّكُمْ * * *

فِيَارِبٌ مَعْرُوضٌ وَلَيْسَ بِكَاسِدٍ * * *

وَأَلْفُ زُبُونٍ يَشْتَرِيهِ بَزَائِدُ * * *

فَمَاذَا الَّذِي أَبْقَيْتُمْ لِلْأَبَاعِدِ * * *

* * *

وَدِدْتُ بِأَنِّي مَا رَأَيْتُ وَجُوهَكُمْ وَأَنَّ طَرِيقًا جِئْتُكُمْ مِنْهُ مَسْدُودٌ

* * *

حَدِّثُوا عَنْ طَوِيلِ لَيْلٍ يَشُهُ لَا رِعَاةَ لِلَّهِ مَا أَطْوَلَهُ هَلْ رَأَيْتُمْ ، هَلْ سَمِعْتُمْ ، هَلْ عَهِدُ تَحَبَّلُ الْمَرْأَةُ فِيهِ وَتَلِدُ

* * *

لَنَا صَدِيقٌ سَيِّئُ فَعْلِهِ لَوْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ قِيَمَةٌ لَيْسَ لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ حَامِدٍ يَعْنَاهُ بِالنَّاقِصِ وَالزَّائِدِ

* * *

يَا غَادِرِينَ أَلَمْ يَكُنْ	بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَهْدٌ
ظَهَرْتُ وَبَانَتْ لِي قِصَّةٌ	تُكْمُ فَمَا هَذَا الْجُحُودُ؟
وَحَلَفْتُمْ مَا خَنْتُمْ	وَعَلَى خِيَانَتِكُمْ شَهُودٌ
يَا مَنْ تَبَدَّلَ فِي الْهَوَى	يَهْنِيكَ صَاحِبُكَ الْجَدِيدُ
إِنْ كَانَ أَعْجَبَكَ الصَّدُودُ	كَذَلِكَ أَعْجَبَنِي الصَّدُودُ
وَأَعْلَمَ بِأَنِّي لَا أُرِيدُ	مُدَّ إِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُرِيدُ
وَأَنَا الْقَرِيبُ فَإِنْ تَغَيَّرَ	رَّصَاحِي فَأَنَا الْبَعِيدُ
يَوْمَ أُخَلِّصُ فِيهِ قَلْبِي	بِئْسَ مِنْكَ ذَلِكَ الْيَوْمُ عِيدُ
وَعَسَاكَ تَطْلُبُ أَنْ أَعُدَّ	وَدَّ إِلَى هَوَاكَ فَمَا أَعُودُ
وَلَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنِّي	لِي فِي الْهَوَى خَلْقٌ شَدِيدُ

* * *

فإني لك وحيدي	مولاي كن لي وحدي
فإن قلبي عندهك	وكن بقلبك عندي
لا خيب الله قصدك	لي فيك قصد جميل
ولمست أثر بعدك	حاشاك تؤثر بعدي
والله لم أنس عهدك	إن تنس عهدي فإني
ما زال يحفظ ودك	أضعت ودَّ محب
أدب كما شئت عبدك	مالي عليك اعتراض
وا سوء حالي بعدك	مولاي إن غبت عني

* * *

طلبت الجميع ففات الجميع
فمن سوء رأيك لاذا ولاذا

* * *

فلي ثلاث لم أرك	بالله قل لي خبرك
موَدَّتني ما أخرك	يا أسبق الناس الى
بق لم يزل منتظرك	وناظري الى الطريد
مذ غبت عني معترك	بين جفوني والكرى
هذا الذي قد غرك	كيف تغيرت ومن
قطعت عني خبرك	وكيف يا معذبي
لامك قلبي عذرك	ومن غرامي كلما
لك الضمان والدرك	والله ما خنت الهوى
نصبت عينيك شرك	وحق عينيك لقد

وحاسدٍ قال فما
ما زال يسعى جهده
أبقى لنا ولا ترك
يا ظبي حتى نفرك

* * *

نقد سرتنى هذا الذى
إن كان ذلك عن رضا
أو كان قصدك فى الهوى
مولائى ما أحلاك فى
ته كيف شئت من الجما
بى من ضنى إن كان سرك
ك وقد علمت به فأمرك
قتلى يطيل الله عمرك
قتل المحب وما أمرك
ل فاست أجهل فيه قدرك

* * *

أصبحت لا شغل ولا مزرعة
وجملة الأمر وتفصيله
مذبذباً فى صفة خاسره
أصبحت لا دنيا ولا آخرة

* * *

ويأتف الغدر قلبى وهو محترق
النار والله فى هذا ولا العار
وليلة الهجر إن طالت وإن قصرت
فؤوسى أمل فيها وتذكر

وله فى رثاء

يا واحداً ما كان لى غيره
يا منتهى سؤلى ويا مشتكى
بعدك وإقالة أنصارى
حزنى ويا حافظ أسرارى

الدارُ من بعدك قد أصبحتُ
إن كنت قد أصبحتُ في جنةٍ
في وحشةٍ يا مؤنس الدار
إني من بعدك في نارٍ
وقال يعاتب امرأة :

يا هذه لا تغلطي
خدعوك بالقول المحا
أظننت لي قلباً على
وسمعتُ عنك قضيةً
نقلتُ إلى جميعها
فمتي أردتِ شرحها
إن كنتِ أنتِ نسيتمها
وسألت عنك فلم أجد
وزعمتِ أنك حرة
فاذا كذبتِ فلا يكن
والله مالي فيك خاطِر
لِ فصَحَّ أنك أم عامِر
هذي الحماقة منك صابر
قد سَطَرْتُ فيها دفاتر
حتى كأنني كنتُ حاضر
لك بالدلائل والأماير
فلنكم لها في الناس ذاكر
لك في جميع الناس شاكر
ما هذه شيم الحرائر
كذباً لكل الناس ظاهر

* * *

فإن متُّ في ذا الحبِّ لستُ بأولٍ
فقبلني مات العاشقون كثير

* * *

أنا مالي على الجفأ
أنكرتُ مقاتي الكرى
فعمسى منك نظرة
لا ولا البعد مُصْطَبِر
حين عرقتُها السَّهر
ربما أقنَعَ النظر

أيها المعرض الذي لا رسول ولا خبر
وجرى منه ما جرى ليتنه جاء واعتذر
كل ذنب كرامة لحياك مغتفر

* * *

قصروا عمر ذا الحفا
شرفوني بزورة
لو وصلتكم محبتكم
مت في الحب صبوة
طسول الله عمركم
شرف الله قدركم
ما الذي كان ضرركم
أعظم الله أجركم

* * *

إني أدل لأنني
ضيف ومملوك وجار

* * *

ويا قمر الأفق عد راجعا
ويا ليلتي هكذا هكذا
خلونا وما بيننا ثالث
فقد بات في الروض عندي قمر
وبالله بالله قف يا سحر
فأصبح عند النسيم الخبر

* * *

أثرت الهوى ثم تبكى أسي
فمنك الرياح ومنك المطر

* * *

لي حبيب لا يسمى
آه لو أمكنني القو
لست أرضى لحبيبي
وحديث لا يفسر
لعللي كنت أعذر
أنه للناس يذكر

وهو معروف ولكن	هو معروف منكر
هو ظي فإذا ما	سمته الوصل تتر
قترى دمي يجرى	ولساني يتعثر
سيدي لا تطع ال	واشي وإن قال فاشتر
خديتي غير ما قد	ظنه الواشي وقدر
إن ذنب الغدير في الحب	لذنب لا يكفر
طالت الشكوى وممل ال	سمع مما يتكرر
وانقضى عمري وحالي	هو حالي ما تغير

* * *

أرْحني منك حتى لا	أرى منظرَكَ الوعرا
فقد صرتُ أرى بعدَ	ك غنى الراحة الكبرى
فما تنفعُ في الدنيا	ولا تشفعُ في الأخرى

* * *

ليس يشفى ما بقلبي	منكم غير حضوري
إن خطبَ البعدِ عنكم	ليس بالخطب اليسير

* * *

وليس اعتمادى إلا عليك	فلا تُخلني من جميل النظر
-----------------------	--------------------------

* * *

يا روضةَ الحسنِ صلي	فما عليك ضير
فهل رأيتِ روضةً	ليس بها زهير

* * *

وَصَاحِبٍ جَعَلْتَهُ أَمِيرِي	أَسْكَنْتَهُ فِي دَاخِلِ الضَّمِيرِ
أَوْدَعْتَهُ الْخَفَى مِنْ أُمُورِي	فَكَانَ مِثْلَ النَّارِ فِي الْبُخُورِ
صَحْبَتُهُ وَلَمْ يَكُنْ نَظِيرِي	قَدَّمَتهُ وَهُوَ يَرَى تَأْخِيرِي

* * *

وَيَوْمَ سُرُورِي يَوْمَ أَرَاكَ	لَأَتِي بِوَجْهِكَ أَسْتَبْشِرُ
----------------------------------	---------------------------------

* * *

وَتَرَانِي بِأَكْيَا مَكْتَبًا	وَتَرَاهُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا
بَعْضُ مَا أَلْقَاهُ مِنْهُ أَنَّهُ	لَا يَزَالُ الدَّهْرُ بِي مُسْتَهْتَرًا
وَأَفْتَضَاحِي فِيهِ مَا أَطْيَبُهُ	كَانَ مَا كَانَ وَيَدْرِي مَنْ دَرَى

* * *

أَوْحَشْتَنِي وَاللَّهِ يَا مَالِكِي	قَطَعْتَ يَوْمِي كُلَّهُ لَمْ أَرَكَ
--------------------------------------	--------------------------------------

* * *

وَأَحْمَقِي ذِي الْحَيَةِ	كَبِيرَةٍ مُنْتَشِرَةٍ
طَلَبْتُ فِيهَا وَجْهَهُ	بَشَادَةً فَلَمْ أَرَهُ
تَبًّا لَهَا مِنْ الْحَيَةِ	كَبِيرَةٍ مُحْتَقَرَةٍ
مُضْحَكَةٍ مَا كَانَ قَطُّ	مِثْلَهَا يَلْسُخِرُهُ
فَلَوْ مَضَى السُّوقُ بِهَا	وَزَفَّهَا بِالْمِزْمَرَةِ
لَحَصَلَتْ لَهُ مَغْدَلٌ	ضَّيْعَةٌ مُوقَرَةٌ

* * *

لکم عذرکم ، أنتم تهمتم فقلتم
وَمَحْتَمِلٌ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ وَجَائِزُ

* * *

قالوا فلان قد غدا تائباً • واليوم قد صلى مع الناس
قلت متى ذاك وأنى له وكيف ينسى لذة الكأس
أمس بهذي العين أبصرته سكران بين الورد والآس
ورحمت عن توبته سائلاً وجدتها توبة إفلاس

* * *

يا مانعاً حلو الرضا وباذلاً مر السخط
حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

* * *

يا كثير الجميل مثلك مولى يشتريني جميله ويبيع

* * *

ملا تهم فؤادي في الهوى فهو متزع
ولا كان قلب في الهوى غير متزع
ولا عاذلى ينفك عني إصبعاً
وقد وقعت في رزة الحب إصبعي

* * *

أرى قصده أن يقطع الوصل بيننا
وقد سل سيف اللخط واللخط قاطع

فَإِنْ تَتَفَضَّلُ يَا رَسُولِي فَقُلْ لَهُ
 مَحَبُّكَ فِي ضَيْقٍ وَحُلُمُكَ وَاسِعٌ
 فَوَاللَّهِ مَا ابْتَلَيْتُ لِقَلْبِي غُلَّةً
 وَلَا نَشَفْتُ مِنْ عَالِيهِ الْمَدَامِعُ
 فَلَا تُشْكِرُوا مِنِّي خُضُوعًا عَلِمْتُمْ
 فَمَا أَنَا فِي شَيْءٍ سِوَى الْحُبِّ خَاضِعٌ

* * *

فَوْقَ خَدَّيْهِ لَنَا وَرْدَةٌ فَوْقَ الصَّفَةِ

* * *

وَلَمَّتْ إِكْرَامًا لَهُ وَجَهَ الرَّسُولِ وَكَفَّهْ

* * *

دَخَلْتُ مَصْرَ غَنِيًّا	وَلَيْسَ حَالِي بِخَافِي
عَشْرُونَ حِمْلَ حَرِيرٍ	وَمِثْلُ ذَلِكَ نِصَافِ
وَجَمَلَةٌ مِنْ لَالٍ	وَجَوْهَرٍ شَفَافِ
وَلِي مِمَّا لِيكَ تُرْكٌ	مِنَ الْمِلَاحِ النَّظَافِ
فَرَحْتُ أَبْسُطَ كَفِّي	وَبِالْحَزِيلِ أَكْفِي
وَصَرْتُ أَجْمَعُ شِمْلِي	بِسَالِفٍ وَسُلَافِ
وَلَا أَزَالُ أَوَانِي	وَلَا أَزَالُ أَصَافِي
فَصَارَ لِي حُرَفَاءُ	كَانُوا تَمَامَ حِرَافِي

وكل يومِ خوانٌ	من الحدا والخراف
فبعتُ كُلَّ تَمِينٍ	معى من الأصناف
وَأَسْتَهْلِكُ الْبَيْعُ حَتَّى	طَرَّاحَتِي وَلِحْنَانِي
صَرَفْتُ ذَاكَ جَمِيعًا	بِمَصْرَ قَبْلَ أَنْصَرَانِي
وَصَرْتُ فِيهَا فَقِيرًا	مِنْ ثُرُوتِي وَعَفَافِي
وَذَا خُرُوجِي مِنْهَا	جَوْعَانٌ عُرْيَانٌ حَافِي

سَأَلْتُ عَنْ وَجْدِي بِهَا وَصَبَابَتِي	فَقُلْتُ أَمَا يَكْفِيكَ مَوْتِي فِيكَ
وَكَاثِلْتُ تَسْمِينِي أَخَاهَا تَعَلُّلًا	فَقُلْتُ لَقَدْ أَفْسَدْتَ عَقْلَ أَخِيكَ

أَرْسَلْتُهُ فِي حَاجَةٍ	كَلِمَاءَ هَيِّنَةٍ الْمَسَاحِ
فَحَرِمْتُ حَسَنَ قَضَائِهَا	إِذْ لَمْ يَكُنْ حَسَنَ الْبَلَاغِ
كَالْخَمْرِ يُرْسَلُ لِلْفَوَا	دِ بِهَا وَتَصَعَّدُ لِلدَّمَاعِ

كَمْ أَلَاقِي مِنْكَ مَالًا	أَشْتَهِي لَأَقِيَّتَ حَيِّنِكَ !
وَعَيُونُ النَّاسِ تَسْتَحِدُّ	بِي وَدَا أَوْقَعَ عَيْنَكَ
لَعَنَ اللَّهُ طَرِيقًا	جَمَعَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ

يَا هَاجِرِي يَحِقُّ لَكَ	وَجَدْتَ غَيْرِي شَغْلَكَ
وَيَا لِسَانَ الدَّمْعِ فِي	شَرَحَ الْهَوَى مَا أَطْوَلَكَ

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَدْنِي لَا تَسَلْ عَمَّنْ هَلَكَ
بِتُّ بِلَيْلٍ بَاتَهُ كُلُّ عَدُوِّي وَلَكَ

* * *

أَصْبَحَ عِنْدِي سَمَكَةٌ وَكِسْرَةٌ مَذْرُومَةٌ
أَرَدْتُ أَنْ أُحْضِرَهَا عَلَى سَبِيلِ الْبَرَكَةِ
تَجْعَلُهَا لِي يَحْيَى بَعْدَهَا مُحَرَّكَةٌ

* * *

إِذَا كُنْتَ مَشْغُولًا وَذَا يَوْمُ جُمُعَةٍ
فَفِي أَيَّامٍ يَوْمٍ تَكُونُ بِلا شُغْلٍ

* * *

فَعَلْتُ مَا يَلْزَمُنِي فَلَيْتَ غَيْرِي لَوْ فَعَلْتُ

* * *

وَكُنْتُ زَمَانًا لَا أَقُولُ فَعَلْتُ
لَعَمْرِي لَقَدْ عَاطَمُونِي عَلَيْكُمْ
سَيَنْدَمُ بَعْدِي مَنْ يُرِيدُ قَطِيعَتِي
وَلَكِنِّي مِنْ بَعْدِهَا سَأَقُولُ
وَإِنِّي إِذَا عَلِمْتُ فِي قَبُولُ
وَيَذْكُرُ قَوْلِي وَالزَّمَانُ طَوِيلُ

* * *

وَمَا عِيشُ الْغَرِيبِ بِلا عِيَالٍ كَعِيشِ الْقَاطِنِينَ ذَوِي الْعِيَالِ

* * *

فَإِذَا جِئْتَ وَغَابَ إِلَيْنَا طَرًّا لَا يَهْمُهُ

* * *

وَلَوْلَا احْتِقَارِي فِي الْهَوَى لَعَوَّاذِلِي صَرَفْتُ لَهُمْ بَالِي وَمِثْنِي وَمِنْهُمْ

* * *

كَلِمَا قُلْتَ اسْتَرْحَنَا جَاءَنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ
فَاعِترَانَا كَلَّمَا مَدَّ بِهِ انْقِبَاضُ وَاحْتِشَامُ
فَهَوَّ فِي الْمَجْلِسِ فَدَمَّ مَوْلَانَا فَهَوَّ وَفِدَامُ
وَعَلَى الْجَمَلَةِ فَالْتَمَسَ يَخُثُّ ثَقِيلٌ وَالسَّلَامُ

* * *

هُمْ عَالَمُوهُ فَصَارَ يَهْجُرُنِي رَبِّ خُذِ الْحَقَّ مِنْ مُعَلِّمِهِ

* * *

سَلَّمَ عَلَيَّ إِذَا مَرَرْتُ تَ فَلَا أَقْلَ مِنْ السَّلَامِ
الْعُدْرُ فِي كُلِّ الطَّبَا عَ فَلَا أَخْصُصُكَ بِالْمَلَامِ
مَا أَكْثَرَ الْعُدَّالَ فِي وَلَهَى عَلَيْكَ وَفِي غَرَامِي
هَبْنِي كَتَمْتُهُمْ هَوَا لَكَ فَكَيْفَ أَكْتَمْتُهُمْ سَقَامِي

* * *

يَا أَيُّهَا الْبَاذِلُ مَجْهُودَهُ فِي خِدْمَةٍ أَفَّ لَهَا خِدْمُهُ
إِلَى مَتَى فِي تَعَبٍ ضَائِعٍ بِدُونِ هَذَا تَا كُلِّ اللَّقْمَةِ
تَشْقَى وَمَنْ تَشْقَى لَهُ غَافِلٌ كَأَنَّكَ الرَّاغِصُ فِي الظُّلْمَةِ

* * *

بَرَحَ الْخَفَاءُ وَقَلَّتْهَا مِنِّي إِلَيْكَ بَلَا آحْتِشَامِ
لَمْ تَبْقَ فِيكَ بَقِيَّةٌ لَا لِلْحَلَالِ وَلَا لِلْحَرَامِ

* * *

خَلَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مَا خَلَاكُمْ وَقُلْتُ مَا بَلِي أَحَدٌ سِوَاكُمْ
وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَجْفَاكُمْ خُلِقَ خُلُقِي دَائِمًا أَرْعَاكُمْ
وَكُلُّ مَا أَسْخَطَنِي أَرْضَاكُمْ وَاللَّهِ لَا أَفْلَحَ مَنْ يَهْوَاكُمْ
وَبَعْدَ ذَلِكَ سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكُمْ

* * *

مَنْ رَأَى يَرْقُ لِي ضَائِعًا فِي يَدَيْكُمْ
كَانَ مَا كَانَ بَيْنَنَا وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ

* * *

لَعَنَ اللَّهُ حَاجَةً أَلْجَأْتَنِي إِلَيْكُمْ
وَزَمَانًا أَحَالَ نِي فِي أُمُورِي عَلَيْكُمْ
فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُجِدَّ صَنِي مِنْ يَدَيْكُمْ

* * *

تَرَكْتَنِي يَا أَلْفَ مَوْ لَايَ بِأَلْفِ نِعْمَةٍ

* * *

كَمْ أَنَا أَسْأَلُ أَظْهَرُوا الزَّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنْ حَالٍ وَحَرَامٍ
قَلَّلُوا الْأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرَعًا وَاجْتَهَادًا فِي صِيَامٍ وَقِيَامٍ
عَمَّ لَمَّا أَمَكْنَتْهُمْ فَرَصَةٌ أَكَلُوا أَكْلَ الْحَزَانِي فِي الظَّلَامِ

* * *

سَمِعَ النَّاسُ وَقَانَا وَآفَتْضَحْنَا وَآسْتَرَحْنَا
تُّ وَالْبَدْرُ نَدِيمِي فَفَعَلْنَا وَتَرَكْنَا

بات يدعونا التَّصَابِي	فسمعنا وأطعنا
وجعلناه يقينًا	بعد ما قد كان ظنًا
شَكَرَ اللَّهُ لِمَنْ بَشَّ	رَ بالوصلِ وهنًا
لى حبيبٍ لى منه	كُلُّ شىءٍ أتمى
فَهُوَ بِدَرٍّ يُتَجَلَّى	وهو غصنٌ يَتَلْتَمَى
كَانَ غَضَبَانِ فَلَمَّا	أَنْ تَلَاقَيْنَا أَصْطَلَحْنَا
يَتَجَنَّى وَلَعَمْرَى	حَقُّهُ أَنْ يَتَجَنَّى
جَمَعَ الْحَسَنَ وَفِيهِ	غَيْرَ ذَلِكَ الْحَسَنِ مَعْنَى
مَنْ لَهُ مِثْلُ حَبِيبِي	قَدْ حَوَى حَسَنًا وَحُسْنَى
هَاتِ حَدَّثْنِي وَقُلْ لِي	مَا عَلَى الْعَاذِلِ مِنَّا
نَحْنُ لَا نَسْأَلُ عَنْهُ	مَا لَهُ يَسْأَلُ عَنَّا

* * *

مَجَبَّتِي تُوجِبُ إِذْلَالِي	وَأَنْتَ ذُو فَضْلٍ وَإِفْضَالِ
وَبَيْنَنَا مَنْ سَالَفَ الْوَدَّ مَا	يُوجِبُ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ حَالِي
فَاجْعَلْ عَلَى بَالِكَ شُغْلِي كَمَا	شُكْرُكَ لَا يَبْرَحُ عَنِ بَالِي

* * *

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ	لَيْسَتْ تُسَاوِي نَحْدَلَةً
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيُو	نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشَكَّلَةً

وَتُخَالُ مُدِيرَةٌ إِذَا مَا أَقْبَاتُ مُسْتَعِجَلَةٌ
مِقْدَارُ خُطُوتِهَا الطَّوِيلَةُ حِينَ تُسْرِعُ أَنْمَلَهُ
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَةٌ
أَشْبَهَتْهَا بِلِ أَسْبَهَتْكَ كَأَنَّ بَيْنَكُمَا صِلَةٌ
تَحْكِي صِفَاتِكَ فِي الثَّقَا لَةِ وَالْمَهَانَةِ وَالْبَلَاءِ

* * *

فَلَيْتَ شَعْرِي مَتَى تَخْلُو وَتُنِصِتُ لِي
حَتَّى أَقُولَ فَقُلْبِي مِنْكَ مَلَانُ
إِيَّاكَ يَدْرِي حَدِيثًا بَيْنَنَا أَحَدٌ
فَهُمْ يَقُولُونَ : لِلْخَيْطَانِ آذَانُ
مَنْ لِي بِنَوْمِي أَشْكُو ذَا السَّهَادَةِ
فَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ النُّومَ سُلْطَانُ
أَسْتَخْدِمُ الرِّيحَ فِي حَمْلِ السَّلَامِ لَكُمْ
كَأَنَّمَا أَنَا فِي عَصْرِ سُلَيْمَانَ

* * *

تُجَادُّ صَبُوءًا فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَتَسْكُرُ سَكْرَةً مِنْ كُلِّ دُنْ
أَقُولُ الْحَقَّ مَا لَكَ مِنْ صَدِيقٍ
فَلَا تَعْتَبْ عَلَيَّ وَلَا تَلْمِئْنِي

نَصَحْتُكَ لَوْ صَحَّوتَ قَبْلْتَ نَصَحِي
وَلَكِنْ أَنْتَ فِي سَبْكِ التَّجَنِّي
وَمَنْ سَمِعَ الْغَنَاءَ بَغَيْرِ قَابِ
وَلَمْ يَطْرُبْ فَلَا يَلِمُ الْمَغْنَى
مُرَادِي لَوْ خَبَأْتُكَ يَا حَبِيبِي
مَكَانَ النُّورِ مِنْ عَيْنِي وَجَفْنِي

* * *

لَسْتُ أَصْنَعِي وَلَا أَعِي خَائِي مِنْكَ خَائِي

* * *

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ يُحِبُّ فِي كُلِّ لَوْنٍ

* * *

نَرَاكُمْ قَدْ بَدَأَ مِنْكُمْ	أُمُورٌ مَا عَمِيْدُنَاهَا
كَشَفْتُمْ بَيْنَنَا أَشْيَا	عَ قَدْ كُنَّا سَتَرْنَاهَا
وَكَمْ جَاءَتْ لَنَا عَنْكُمْ	أَحَادِيثُ رَدَدْنَاهَا
وَأَشْيَاءَ رَأَيْنَاهَا	وَقُلْنَا مَا رَأَيْنَاهَا
وَمَا زِلْتُمْ بِنَا حَتَّى	جَسَرْنَا وَفَعَلْنَاهَا
وَكُنْتَ بَيْنَنَا طَائِفٌ	فَهَا نَحْنُ سَدَدْنَاهَا

* * *

سَيِّدِي يَوْمُكَ هَذَا	لَيْسَ يَخْفَى عَنْكَ رَسْمُهُ
قَمِيْنًا قَدْ طَلَعَ الْفَجْدُ	رُوقِدَ أَشْرَقَ نَجْمُهُ
عِنْدَنَا وَرَدَ جَنِّي	يُنْعَشُ الْمَيِّتَ شَمُّهُ
وَلَدَيْنَا ذَلِكَ الضَّيِّقُ	يُفُ الذِّي عِنْدَكَ عَالِمُهُ
وَلَنَا سَاقِي رَشِيْقُ	أَحْوَرُ الظَّرْفِ أَحْمَرُهُ
وَيَحْوَانُ يَعْبَقُ الْمَسْدُ	كَ بَرِيَّاهُ وَطَعْمُهُ
وَأَخْ يَرْضِيكَ مِنْهُ	فَضْلُهُ الْجَمُّ وَفَهْمُهُ
كَامِلُ الظَّرْفِ أَدِيبُ	شَاخِ الْأَنْفِ أَشْمُهُ
حَسَنُ الْعِشْرَةِ لَا يَأْ	تِيكَ مِنْهُ مَا تَذَمُّهُ
وَمَغْنَنُ زَيْرِهِ أَطَرُ	بِ مَسْمُوعٍ وَبِمَهْ
وَسُرُورٍ لَيْسَ شَيْءُ	غَيْرِ رُؤْيَاكَ يَتِمُّهُ
فَأَجِبْ دَعْوَةَ دَايِعِ	أَنْتَ مِنْ دُنْيَاهُ سَهْمُهُ
فَإِذَا جِئْتَ وَغَابَ النَّاسُ	سُطْرًا لَا يَهْتَمُّهُ

* * *

مَنْ الْيَوْمَ تَعَارَفْنَا	وَنَطَوَى مَا جَرَى مِنَّا
وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ	وَلَا قَلَسْتَ وَلَا قَلْنَا
وَإِنْ كَانَ وَلَا نَدَّ	مَنْ الْعَتَبُ فَبِالْحُسْنَى
فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ	كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا

كفى ما كان من هجرٍ وقد ذُقمَ وقد ذُقنا
وما أحسن أن نرجحَ معَ للوصلِ كما كنا

* * *

لا تلمني أو فلمني فيك ظلمٌ وتجنّي
لا تسأبني لعتبٍ ما بذّا تخلص مني
لا تقل إني وإني ليس هذا القولُ يغني
أنا لا أسأل عمن لم يكن يسأل عني
إن تزرني فبهذا الشـ رط أو لا لا تزرني
فأسترخ بالله من هذا التّجنّي وأرخني

* * *

يا كتابا من حبيب أنا مشتاق إليه
جاءني منه سلام سلّم الله عليه

* * *

يا رسولی قبل الأرم ض اذا جئت إليه
ثم عرفه بأني كنت غضبان عليه

وفي طبعة پلمر :

إنّ الرضیّ الذی بُلیت به أفعاله الكلّ غیر مرضیّ
وكنّت فی شدّة برؤيته کسـلم فی إسمار ذمی
وبعد جهادٍ خالصت من یدیه خلاص عظیم من کفّ ترکی

* * *

مضى الشباب وولى ما انتفعت به
وليت له فارط يرجى تلا فيه
أوليت لى عملاً فيه أسره
أوليتنى لا جرى لى ما جرى فيه
وأحسرتاه لعمير ضاع أكثره
والويل إن كان باقيه كاضيه
من مثل قلبي أو من مثل ساكنيه
الله يحفظ قلبي والذي فيه

* * *

مولاى يا قلبي العزيز	زوايا حياتى الغالية
إنى لأطلب حاجة	ليست غايك بخافيه
أنعم على يقبله	هبة وإلا عاريه
وأعيدها لك لا عديم	ت - بعينها وكما هي
واذا أردت زيادة	خُدها ونفسي راضيه
فعسى يجود لنا الزما	ن بخلو في زاويه
أوليتنى ألقاك وحد	مدك في طريق خاليه

* * *

قالوا كبرت عن الصبا	وقطعت تلك الناحيه
فدع الصبا لرجاله	وأخلع ثياب العاريه

وَنَعَمَ كَثُرَتْ وَأَنَا
وَيَفُوحُ مِنْ عِطْفَى أَنْفَا
وَيَمِيلُ بِي نَحْوَ الصَّبَا
فِيهِ مِنَ الطَّرَبِ الْقَدِيدِ
تلك الشَّمائلُ باقية
سُ الشَّبابِ كجَاهِيهِ
قلب رقيقُ الحَاشِيهِ
بِم بَقِيَّةٌ فِي زَاوِيهِ

* * *

لَوْ تَرَانِي وَحَبِيبِي عِنْدَ مَا
وَمَضَى يَعْدُو وَأَعْدُو خَلْفَهُ
قَالَ : مَا تَرْجِعُ عَنِّي ؟ قُلْتُ لَا
فَأَنْتَنِي يَحْمِزُ مِنِّي نَحْجَلًا
كَدْتُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ أَنْتَهُ
فَرَّ مِثْلَ الظَّبْيِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ
وَتَرَانَا قَدْ طَوَيْنَا الْأَرْضَ طَيًّا
قَالَ : مَا تَطْلُبُ مِنِّي ؟ قُلْتُ شَيْ
وَشَاهَ التَّيَّةُ عَنِّي لَا إِلَى
أَدِ لَوْ أَفْعَلُ مَا كَانَتْ عَلَى

* * *

يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي وَعَلَى
مَا لَهُ أَصْبَحَ عَنِّي مَعْرِضًا
يَا حَبِيبِي أَيْنَ مَا أَهَمَّهُ
فَأَتَنِي إِذْ مَرَّ مَا كَلَمْتُهُ
أَنَا مَنْ قَدْ مِتُّ فِي الْعَشِيقِ بِهِ
وَحَبِيبًا هُوَ مِنِّي وَالِيَّ
تَحْتَ ذَا الْإِعْرَاضِ مِنْ مَوْلَايَ شَيْ
يَا تُرَى مِنْ ذَا الَّذِي زَادَ عَلَيَّ
كَدْتُ أَنْ آكُلَ مِنْ غَيْظِ يَدَيَّ
هَنْتُونِي ، مَيِّتُ الْعُشَّاقِ حَيَّ

في هذه الأشعار وكثير غيرها مما يوجد في ديوان البهاء زهير عبارات وأساليب مضرية أكثر من عربيتها، والشعراء يتأبئون أن يستعملوها منذ القدم وحتى في هذه العصور، ويعدون ذلك تبذلاً

وضعفا وإخلا لا بجمال الشعر وجمال البيان، ويؤثرون لغة الشعر في عصور العربية الراقية، حتى لا تكاد تفرق من جهة اللغة بين الشعر الراقى في مختلف العصور. ولست تجد شاعرا من المعدودين في أى عصر حتى الآن يرضى أن يستعمل في شعره كلمة اليك والشيش، ولا أن يقول :

لست أصغى ولا أعى خلنى منك خلنى

ولا أن يقول :

سمع الناس وقلنا وافتضحنا واسترحنا

أستغفر الله ! هم لا يريدون ذلك، بل ولا يقدرُونَ عليه، فانما هو السهل المتنع. كما يقول ابن خالكان. ولا بد من عبقرية كعبقرية البهاء زهير لتوفق هذا التوفيق في إنشاء أشعار من الطراز الأول، يطرب لها الخاصة ولا تكون العامة أقل بها طربا، بلسان هو لسان التجاور ولسان البيوت والأسواق .

لم يكن البهاء زهير عاجزا عن مجازاة غيره من الشعراء المتميّزين في تنخير الألفاظ العربية، المتأقنين في تزيينها بالمحسنات، فقد كان رجلا عالما بدرس الأدب والدين، وعرف من أخبار العرب الجاهلية والإسلامية ما ينم عليه شعره، إذ يُشير إلى الحوادث ويذكر أسماء كثيرين من الشعراء وغير الشعراء . واختياره لكتابة السر في عهد

الأيوبيين دليلٌ على منزلته من الرياسة العلمية والأدبية في ذلك العصر .

بل البهاء زهير قد سلك مسلك غيره من الشعراء في تعبيراتهم وتفكيراتهم في مدائحه . ومدائح البهاء زهير، في غالبها، دون سائر فنونه الشعرية طرافة وإبداعاً، مع أنه شاعر القصير في عهد الأيوبيين، كما يقول هيار . ومن أمثلة هذه المدائح :

لَكَ اللَّهُ مِنْ وَالٍ وَلِيٍّ مَقَرَّبٍ	فَكَمْ لَكَ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَ مُحَبِّبٍ
حَلَّاتٍ مِنَ الْمَجْدِ الْمُنْعِ فِي الْوَرَى	بَارْفَعٍ بَيْتٍ فِي الْعَلَاءِ مُطَنَّبٍ
يُقَصِّرُ عَنْ أَمْثَالِهِ كُلِّ قَيْصِرٍ	وَيَغَابُ عَنْ أَمْثَالِهِ كُلُّ أَغْلِبٍ
جَوَادٌ مَتَى تَحُلُّ بِوَادِيهِ تَأَقَّهَ	كَمَا قِيلَ فِي آلِ الْجَوَادِ الْمُهَلَّبِ
أَحَقُّ بِمَا قَالَ آبَنُ قَيْسٍ لِمَالِكٍ	وَأَوْلَى بِمَا قَالَ ابْنُ أَوْسٍ لِمُصْعَبٍ
وَلَوْ شَاهَدَ الْعَجَلُ جَدَّوَاهُ مَا انْتَمَى	لِعِكْرِ مَةِ الْفَيَّاضِ يَوْمًا وَحَوْشِبِ

ومن قصيدة له بمدح بها السلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن عادي بن يوسف بن أيوب :

ومذ كنتُ لم ترضِ النقيصةَ شِئْتِي
ومثلُك يا أباهَا لمثلِي وَيَأْنِفُ
ولا أبتغي إلا إقامةَ حُرْمَتِي
ولستُ لشيءٍ غيرها أَنَأْسَفُ

ونفسي بحمد الله نفسُ أَيْبَةٍ
فها هي لا تهفو ولا تتأفف
ولكن أطفالا صغارا ونسوة
ولا أحدٌ غيري بهم يتأفف
أغارُ اذا هبّ النسيمُ عليهمُ
وقلبي لهم من رحمةٍ يترجفُ
سروري أن يبدو عليهم تنعمُ
وحزني أن يبدو عليهم تقشفُ
ذحرتُ لهم أطف الإله ويوسفًا
ووالله لا ضاعوا ويوسفُ يوسفُ
أَكَلْتُ شعري حين أشكو مشقةً
كأنني أدعوه لما ليس يؤلفُ
وقد كان معتادًا لكل تغزلُ
تَهَيَّمُ به الألبابُ حسناً وتُسَخِّفُ
يلوح عليه في التغزلِ رونقُ
ويظهرُ في الشكوى عليه تكلفُ
وما زال شعري فيه للروح راحةً
وللقلب مسلاةً وللهمَّ مصرفُ

يُنَاغِيكَ فِيهِ اللَّطِيُّ وَالظُّبِيُّ أَحْوَرُ
وَيُلْهِيكُ فِيهِ الْغَصْنُ وَالْغَصْنُ أَهْيَفُ
شَكَوْتُ وَمَا الشُّكْوَى إِلَيْكَ مَذَلَّةٌ
وإن كنتُ فيها دائماً أَتَانَفُ

وله قصيدة في مدح الأمير النصير اللطبي ، أولها :

صَفْحًا لِهَذَا الدَّهْرِ عَنْ هَفَوَاتِهِ إِذْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ حَسَنَاتِهِ
يَوْمٌ يُسَطَّرُ فِي الْكِتَابِ مَكَانُهُ كَمَا كَانَ بِأَسْمِ اللَّهِ فِي خَتَمَاتِهِ
ومنها :

يَا مُعْجَزَ الْأَيَّامِ قَرَّعَ صَفَاتِهِ وَجَمَّلَ الدُّنْيَا بِحَسَنِ صِفَاتِهِ
قَوْمٌ هُمُ فِي الْبَيْسِ خَيْرُ سُرَاتِهِا حَسْبًا وَهُمْ فِي الدَّهْرِ خَيْرُ سُرَاتِهِا
شَرَفَ الزَّمَانُ بِكُلِّ نَدْبٍ مِنْهُمْ مَتَّقِظٌ وَهَبَ الْعَلَا غَفَلَاتِهِ
يَا مَنْسِكَ الْمَعْرُوفِ أَحْرَمَ مَنْطِقِي زَمِنًا وَقَدْ لَبَّاكَ مِنْ مِيقَاتِهِ
هَذَا زَهْرُكَ لَا زَهْرٌ مُزِينَةٌ وَافَاكَ لَا هَرِمًا عَلَى عِلَاتِهِ
دَعَا وَحَوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمِعَ لَزَهْرٍ عَصْرِكَ حَسَنَ لَيْلِيَّاتِهِ
لَوْ أَنُشِدْتُ فِي آلِ جَفْنَةٍ أَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ حَسَّانٍ وَعَنْ جَفْنَاتِهِ
ومن ذلك قوله في مدح الملك الكامل ناصر الدين أبي الفتح

محمد بن الملك العادل وذكر انتزاعه ثغر دمياط من الإفريج :

بِكَ أَهْتَرَّ عَطْفُ الدِّينِ فِي حُلَلِ النَّصِيرِ
وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الْكَفْرِ

وليلة غزوا للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو أن سميتها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم
بساجدة دهم وساجدة غر
أساطيل ليست في أساطير من مضى
بكل غراب راح أفك من صقر
وجيش كثل الليل هولا وهيبة
وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله
لآل زهير لا ولا لبنى بدر
وبات جنود الله فوق ضوامر
بأوضحها تُغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
كفى الله دمياط المكاره، إنها
لن قيلة الإسلام في موضع النحر

وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يَحُلُّ محلَّ الرقيق من ذلك الثغر

ومن قصيدة يمدح بها علاء الدين علي بن الأمير شجاع الدين
جلدك :

فيا ظبي هَلَّا كان منك التفاتةٌ
ويا غصن هَلَّا كان فيك تعطفُ
ويا حرم الحسن الذي هو آمنُ
وألبابنا من حوله تَنخطفُ
عسى عطفةً للوصل يا واصلِ
على فإني أعرف الواو تعطفُ

ومن قصائده في مدح السلطان الملك الصالح نجم الدين
أيوب ، وذلك في سنة ٦٢٢ هـ في طبعة بالمر ، ولعلها أولى قصائده
في مدحه حين جاء من قوص الى القاهرة واتصل به ، :

وعَدَ الزيارة طَرْفه المتملِّقُ
وتلاف قلبي من جفونٍ تنطقُ
إني لأهوى الحسنَ حيثُ وجدتهُ
وأهيم بالقَدِّ الرشيقِ وأعشقُ

وبليتى كَفَلٌ عَلَيْهِ ذُؤَابَةٌ
مثل الكثيب عليه صَلُّ مَطَرٍ
إِنْ عَنَّفُوا ، إِنْ سَوَّفُوا ، إِنْ خَوَّفُوا
لا أنثى ، لا أُنْثَى ، لا أفرق
ويزيدنى تَلَفًا فأشكرُ فضله
كالمسك تَسَحُّقُهُ الْأَكْفُ فَيَعْبِقُ
ولقد سَعَيْتُ إِلَى الْعَالَاءِ بِهَمَّةٍ
تَقْضِي لِسَعْيِ أَنَّهُ لَا يُخْفِقُ
ومررتُ فِي لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَـهُ
مَنْ فَارِطٌ غَيْرَتَهَا إِلَى تَحْدِيقِ
حَتَّى وَصَلْتُ سُرَادِقَ الْمَلِكِ الَّذِي
تَقِفُ الْمُلُوكُ بِبَابِهِ تَسْتَرْزِقُ
فإِليكَ يَا نَجْمَ السَّمَاءِ فَإِنِّى
قَدْ لَاحَ نَجْمُ الدِّينِ لِي يَتَأَلَّقُ
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانُهُ
حَسَنٌ يَتِيَهُ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَاقُ
مَلَأَ الْقُلُوبَ مَخَافَةً وَمَحَبَّةً
فَالْبَاسُ يُرْهَبُ وَالْمُكَارِمُ تُعْشَقُ

فَعَدَلْتُ حَقِّي مَا بَهَا مُتَظَلِّمٌ
وَأُنَلْتُ حَقِّي مَا بَهَا مُسْتَرْزَقٌ
يَا مَنْ رَفَضْتُ النَّاسَ حِينَ لِقَائِهِ
حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا
قَيَّدْتُ فِي مَصْرِ إِلَيْكَ رُكَّائِي
غَيْرِي يُغَرِّبُ تَارَةً وَيُشْرِقُ
وَحَلَّاتٌ عِنْدَكَ أَذْ حَلَّاتٌ بِمَعْقِلِ
يُلْقِي إِلَيْهِ مَارِدٌ وَالْأَبْلَقُ
وَتَيَقِّنَ الْأَقْوَامُ أَنِّي بَعْدَهَا
أَبْدًا إِلَى رُتَبِ الْعَالَا لَا أُسْبِقُ
فُرَزِقْتُ مَا لَمْ يُرَزَقُوا وَنَطَقْتُ مَا
لَمْ يَنْطِقُوا وَلَحِقْتُ مَا لَمْ يَلْحَقُوا

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز محمد :
عَرَفَ الْحَبِيبُ مَكَانَهُ فَتَدَلَّلَا
وَأَتَى الرَّسُولَ فَلَمْ أَجِدْ فِي وَجْهِهِ
فَقَطَعْتُ يَوْمِي كُلَّهُ مُتَفَكِّرًا
وَأَخَذْتُ أَحْسَبُ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ
فَلَعَلَّ طَيْفًا زَارَ مِنْهُ فَرَدَّهُ
وَعَسَى نَسِيمٌ يَتُّ أَكْتَمُ سِرَّنَا
وَقَنِعْتُ مِنْهُ بِمَوْعِدٍ فَتَعَلَّلَا
شَرًّا كَمَا قَدْ كُنْتُ أَعْهَدُ أَوَّلَا
وَسَهَرْتُ لَيْلِي كُلَّهَا مُتَمَلِّمًا
مُتَحَرِّكًا فِي فِكْرَتِي مُتَخَيِّلًا
سَهَرِي فَعَادَ بَغِيْظُهُ فَتَقَبَّلَا
عَنْهُ فَرَّاحٌ يَقُولُ عَنِّي قَدْ سَلَا

ولقد خَشِيتُ بأن يكون أُمالَه غيرِ ، وطبعُ الغصنِ أن يَتَمَيَّلَا
وأظنَّه طلبَ الحديدِ وطالما عَمَّقَ القميصُ على أمرى فَنَبَدَلَا
أهوى التذللَ في الغرامِ وإنما ، يَأبَى صلاحُ الدين أن أَتَدَلَّلَا
مَهَّدْتُ بالغزلِ الرقيقِ لمدحه وأردتُ قبلَ الفَرَضِ أن أَتَنَفَّلَا
يا مَنْ مديحى فيه صدقُ كُلِّه فكأَنَّمَا أَتَلُو كِتَابًا مُنَزَّلَا
يَأْمَنُ وَلَائى فيه نصٌّ بين والنصُّ عندَ القومِ لن يَتَأَوَّلَا

ولعل البهاء زهيرا كان يشعر بما يكتنف مذهبَه الحديدَ فى الشعر من تنقيص خصوصيه ، ومن ضعف الأذواق التى أفسدها التكلف عن تذوقه ، لذلك كان يسلك فى الشعر الرسمى شعر المديح ، المذهب القديم غالبا ، ويظهر عليه ، فى كثير من الأحيان ، أنه يحاول غير ما فى طبعه ، حتى اذا هتفت بالشعر عواطفه ، عاد الى مذهب السهل البسيط الخالى من التصنع القريب من الفطر .

ولمذهب البهاء زهير خصومٌ نجد صدى أحكامهم فى قول صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » لليافعى اليمنى المتوفى سنة ٧٦٨ :

« قال ابن خلكان : وكل شعره لطيف ، وذكر شيئا منه فى تاريخه ، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئا منه ولا أعجبنى ولا قوى عزى الضعيف »

لكن لمذهب البهاء زهير مريدون كثيرون يرون شعره لطيفاً
من السهل الممتنع، كما نقلنا عن ابن خلدكان .

ويرى بالمرء، في مقدمته لديولن شاعرنا، أن عصر البهاء زهير
كان أكثر العصور صلةً بين الثقافة العربية وثقافة الغرب، بسبب
الحروب الصليبية وما تبعها من استقرار مملكة غربية في فلسطين
زمنًا . ويقول : إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوربي، وأكثر
أفكاره تُحاذى أفكار الشعراء الانجليز في القرن السابع عشر .

ب —

ب — الناحية الثانية من نواحي عبقرية البهاء زهير في النهضة
الشعرية — ناحية الأوزان .

أسلفنا أنه كانت في عهد البهاء زهير انتشرت أوزانُ
التوشيح الآتية من الأندلس، وذلك لا بد أن يكون نبه الشعراء
إلى فن من الألحان الشعرية جديد، فأهتدت الفطر الموسيقية
إلى اختيار البحور اللطيفة والأوزان الموفورة الحظ من الموسيقى
ومن التأثير . وهذا شأن البهاء زهير، فإننا نجد في غير شعر المديح
قلما يركن إلى غير الأوزان الخفيفة . يقول :

هو حظي قد عرفتُه لم يحل عما عهدتُه .
فإذا قصر من أهد واه في الود عذرتُه

غير أُنِّي لِي فِي الْحُبِّ طَرِيقٌ قَدِ سَلَكَتُهُ
 لو أراد البُعْدَ عَنِّي نورُ عيني ما تَبِعْتُهُ
 إن قلبي وهو قلبي ، لو تَجَنَّى ما حَبِطْتُهُ
 كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَبِيبِي ما خلا الغَدْرَ آحْتَمَلْتُهُ
 أنا في الحبِّ غَيُورٌ ذاك خُلِقَ لِأَعْدَمْتُهُ

* * *

وقال دُوَيْبِيت :

قَدْ رَاحَ عَذُولِي وَمِثْلُ مَا رَاحَ أُنِّي
 بِاللَّهِ مَتَى نَقَضْتُمُ الْعَهْدَ مَتَى
 مَاذَا ظَنَّنِي بِكُمْ وَمَاذَا أُمَلِي
 قَدْ أَدْرَكَ فِي سُؤْلِهِ مِنْ شَيْئًا

* * *

هَبِّ النَّسِيمُ عَلِيًّا وهو النَّسِيمُ الصَّحِيحُ
 وَطَابَ وَقْتُكَ فَانْهَضْ فَالآنَ طَابَ الصَّبُوحُ
 وَخُذْ عَنِ الْكَأْسِ نُورًا بِهِ يُضِيءُ الْفَسَاحُ
 مِنْ قَهْوَةٍ طَابَ مِنْهَا طَعْمٌ وَلَوْنٌ وَرِيحٌ
 فِي دَنِّهَا وَهِيَ رَاحٌ وَفِي الْحَشَا وَهِيَ رُوحٌ

* * *

يَا مُعْرِضًا مُتَجَنِّيًا حَاشَاكَ يَا عَيْنِي وَرُوحِي
 لَمْ تَدِرْ مَا فَعَلَ الْبَكَاءُ عَلَيْكَ بِالْخَفِينِ الْقَرِيحُ

وَجَرَحْتَ قَلْبِي بِالْجَفَا
قُبِّحَتْ فِيَّ بِمَا فَعَلَا
إِنْ كُنْتَ مِنِّي مُسْتَرِيد
فَمَتَى أَفُوزُ بِنَظَرِهِ
لَكَ مِنْ ضَمِيرِي مَا عَلِمَا
وَكَذَاكَ أَنْتَ فَسَلْ ضَمِيرِي
ءِ فَأَهٍ لِلْقَلْبِ الْجَرِيحِ
تَ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيحِ
بِحَا لَسْتُ مِنْكَ بِمُسْتَرِيحِ
مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ الْمَلِيحِ
تَ بِهِ مِنَ الْوَدِّ الصَّرِيحِ
رَكَ فَهُوَ يَشْهَدُ بِالصَّحِيحِ

* * *

يَا فَاعِلَ الْفَعْلَةِ الَّتِي أَشْتَهَرْتُ
فَعَلْتَهَا بَعْدَ عِقَابٍ وَتَقَى
هَذَا وَأَنْتَ الَّذِي يُشَارِلُهُ
لَمْ تَجِرْ فِي خَاطِرِي وَلَا خَلَدِي
فِيَالَهَا سَبَّةً إِلَى الْأَبَدِ
لَا عَتَبَ مِنْ بَعْدِهَا عَلَى أَحَدٍ

* * *

حَبِيبِي تَائِهٌ جَدًّا
حَمَانِي الشُّهْدَ مِنْ فِيهِ
وَهَيْفَاءُ كَمَا تَهَوَّى
وَتُشْجِيكَ بِالْحَائِنِ
وَلَفِظَ يُوجِبُ الْغَسْلَ
بِجَزَى الرَّحْمَنِ شُعْبَانًا
وَإِنْ عَشِنَا لَشَوْالٍ
أَطَالَ الْعَتَبَ وَالصَّدَا
وَحَلَّى عِنْدِي الشُّهْدَا
تُرِيكَ الْقَدَّ وَالْحَدَا
تُذِيبُ الْجَلْمَدَ الصَّالِدَا
عَلَى السَّامِعِ وَالْحَدَا
تَقْصِي الشُّكْرَ وَالْحَمْدَا
أَعَدْنَا ذَلِكَ الْعَهْدَا

* * *

قد أتانا الطَّبِيقُ المَلد
غيرَ أنِّي لا أُحِبُّ الـ
وأَتَانِي مِنْكَ شَعْرٌ
كاملُ الحَسَنِ فَمَا أُغْدِ
آنَ بِالْمُورِدِ النَضِيدِ
يُورِدُ إِلَّا فِي الْخُدُودِ
كُلُّ بَيْتٍ بِقَصِيدِ
سَنَاهُ عَنْ حَسَنِ النَشِيدِ

فِي رِثَاءِ :

أَمْسَيْتَ فِي قَعْرِ لَحْدِ
وَعِشْتَ بَعْدَكَ يَا مَنْ
وَرُحْتُ مِنْكَ بِوُجْدِ
وَدِدْتُ لَوْ عِشْتَ بَعْدِي

فِي هَجْوِ :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدَا
وَبَنِيهِ فَنَازِلَا
وَأَبَاهُ فَصَاعِدَا
وَاحِدَا ثُمَّ وَاحِدَا

* * *

جاءَ الرِّسُولُ مُبَشِّرِي
أَهْدَى إِلَى سَلَامِهَا
وَأَشَارَ عَنْ بَعْضِ الْحَدِيدِ
إِنْ صَحَّ مَا قَالَ الرِّسُو
مِنْهَا بِمِيعَادِ الزِّيَارَةِ
وَأَتَى بِخَاتِمِهَا أَمَارَهُ
سِتِّ وَحَبْنَدَا تِلْكَ الْإِشَارَةُ
لُ وَهَيْتُهُ رُوحِي إِشَارَةُ

* * *

حَبَّذَا دُورٌ عَلَى النِّيَّةِ
وَمَسَرَاتٌ تَمُوجُ الْأَرِ
وَقَصُورٌ مَا لَعِيشِ
مَلْ وَكَاسَاتٌ تَدُورُ
ضُ مِنْهَا وَتَمُورُ
نَلْتُهُ فِيهَا قُصُورُ

كم بها قد مرّ على أسد
كلّ عيش غير ذاك الـ
متزلّ ليس على الأر
تغفر الله سرور
عيش في العالم زور
مض له عندى نظير

* * *

وجاهل أصبح لى عائباً
أراه قد عرض لى عرضّه
قلت على العينين والراس
أشهدكم يا معشر الناس

* * *

دعوني وذاك الرشا
حالاّ حالاّ له
سرت نخرة الريق في
فيا مشق ذاك القوا
مشى لى في خفية
وليس عجيباً بأن
فوجدى به قد فشا
يعدّنى كيف شا
معاطفه فانتشى
م وياطى ذاك الحشا
فيا حبذا من مشى
ترى الظبي مستوحشا

* * *

مالى أراك أضعتنى
متهاك فاذا حضر
قطا على ولم تكن
هذا وحقّ الله من
وحفظت غيرى كلّ حفظ
ت تطلّ فى نساك ووعظ
يوماً على غيرى بفظ
نكد الزمان وسوء حظى

* * *

مائدة منوعة
وسادة تراضعوا
وقهوة مشعشة
كأس الوداد مترعة

ولا يزيدون على
فاليوم يوم لم يزل
فيما أنحنى كن عندنا
ثلاثة أو أربعة
يوم سكون ودعة
بعد صلاة الجمعة

* * *

تائه ما أصلفه
كاد أن يتلفه
أى روض زاهر
وقضيب ناعم
ويح قلب ألفه
ليت له لو ألفت له
لم أصل أن أقطفه
لم أطق أن أعطفه

* * *

تعيش أنت وتبقى
حاشاك يا نور عيني
ولم أجد بين موتي
يا أنعم الناس قل لي
أنا الذى مت عشقا
تلقى الذى أنا ألقى
وبين هجرى فرقا
الى متى فيك أشقى

* * *

أحببنا حاشاكم
أحببنا لا عاش من
هذا دلال منكم
والله ما خرجت في
وما برحت في ستو
وبلاه ما يلقاه قل
من غضب أو حنق
يغضبكم ولا بقي
دعوه حتى نلتقى
حبي لكم عن خلقي
ر فضلكم تعلقي
حبي منكم وما لقي

إن لم تجودوا بالرضا
 وأنجلى منكم اذا
 أكاد أن أغرق في
 ما حيلتي في كذب
 فبشروا قلمي الشقي
 عتبتهم واحرقني
 بهمي أو في عرق
 من حاسد مصدق

* * *

ويحك يا قلب أما قلت لك
 حررت من نار الهوى ساكناً
 ولي حبيب لم يدع مسلكاً
 ملكته رُوحى ويا ليتته
 بالله يا أحمس خديته من
 وأنت يا نرجس عينية كم
 ويا لمن مر شفيه إني
 ويا دهر الغصن من عطفه
 مولاي حاشاك ترى غادراً
 ما لك في فعلك من مشبه
 إياك أن تهلك فيمن هلك
 ما كان أغناك وما أشغلك
 يُسميت بي الأعداء إلا سلك
 لو رق أو أحسن لما ملك
 عضك أو أدماك أو أنجلك
 تشرب من قلبي وما أذبلك
 أغار للمسواك إذ قبلك
 تبارك الله الذي عدلك
 ما أقبح الغدر وما أجهلك
 ما تم في العالم ما تم لك

* * *

كل شيء منك مقبول
 والذي يرضيك من تأني
 وعلى العينين محمول
 هين عندي ومبدول

* * *
 وجاهلٌ يجهلُ ما يقولُ أقواله ليس لها تأويلُ
 لها فصولٌ كلها فضولُ كثيرُ ما يقوله قليلُ
 فهي فروعٌ ما لها أصولُ كلامه يمجّه العقولُ
 أتعني حديثه الطويلُ فليته كان له محمولُ
 وجملةُ الأمرِ ولا أُطيلُ هو الرصاصُ باردٌ ثقيلُ

* * *
 ماله عني مالا وتجنّي فاطالا
 أثرى ذاك دلالا من حبيبي أم ملالا

* * *
 منزلٌ إن زرتَه لم تلقَ إلا كرمكُ
 وإن تسَلَّ عمن به لم تلقَ إلا خدَمكُ

* * *
 أبا يحيى وما أعير فُ من أنت أبا يحيى
 فحدّثني وقُلْ لي أيُّ شيءٍ أنت في الدنيا
 من الجنِّ؟ من الإنس؟ من الموتى؟ من الأحياء؟
 بعيدٌ منك أن تُفْلِحَ في شيءٍ من الأشياءِ
 فلا أهلاً ولا سهلاً ولا سقياً ولا رعيّاً

* * *
 ونديمٌ يتُّ منه ناعمَ البالِ رضياً
 جاءني يحملُ كأساً قارنَ البدرِ الثريا

أنت وأشرَبها هَنِيئاً	قال خذها قلت خذها
بالهوى سكر الحَمِيئاً	لا تزدني فوق سُكْرِى
مُطَوِّق الرأس حَيِّياً	عندها أعرَض عَنى
هاتِها كَأْساً رَوِيّاً	قلت لا والله إلّا
لستُ أعصِي لك نَهِيّاً	لستُ أعصِي لك أمراً
ترك الشيخ صَبِيّاً	فسقانيها عُقَّاراً
وَتُريكَ الرشدَ غَيّاً	وَتُريكَ الغىَ رشدّاً
كأُسْ أو منه إلّا	لم يَزَلْ مِنِّي اليه إلّا
حُ لنا طَلَقَ الحَيّاً	هكذا حتّى بدا الصَّبّ
مُثلُها لا يَتَيَّماً	يا لها ليلة وصل

هذه أمثلة الأوزان التي يستعملها البهاء زهير في شعره والقوافي ،
وفيها من اللطف وحسن النعمة شيء كثير .

وذكر بعض المترجمين للبهاء زهير أن له وزناً مخترعاً لا يُخرجه
العروض ، في قوله :

يا مَنْ لَعِبْتُ بِهِ شُمُول	ما ألطف هذه الشُمائل
نَشْوانٌ يَهْزُهُ دَلال	كالغصن مع النسيم مائل
لا يُمكنه الكلامُ لكن	قد حَمَلَ طَرْفه رسائل .
ما أطيب وقتنا وأهنا	والعاذلُ غائبٌ وغافل

والعقلُ ببعضِ ذاكِ ذاهلٌ	عشقٌ ومَسْرَةٌ وسَكْرٌ
والغصنُ يميلُ في غلائلُ	والبدرُ يلوحُ في قِنَاعِ
والنَّرجسُ في العيونِ ذابلُ	والوردُ على الحدودِ غَضُّ
والأنسُ بما نحبُّ كاملُ	والعيشُ كما نُحبُّ صافٍ

ويُحاول العروضيُّون أن يجدوا لهذا الوزن مخرجاً في علمهم ، كما فعل الدِّماميني في شرح الخَزرجية . وليس الذي يهمنا أن يكون البهاء زهيراً ابتدع أوزاناً لا يُسيغها علم العروض ، لكن البهاء زهيراً من غير شك اختار لشعره ألطف الأوزان وأدناها محبةً الى الذوق السليم ، وأستخرج من ذلك ما لم يكن مستعملاً في عهده ولا قبل عهده ولا بعده إلا قليلاً .

* * *

ج — الناحية الثالثة — ناحية الموضوعات الشعرية .

ما وصل إلينا من شعر البهاء زهير يجمع كل ما تعرَّض له شعراء العربية من فنون الشعر : كالمديح ، والهجاء ، والغزل ، والنسيب ، والوصف ، والخمريات ، والرثاء ، والفيخر .

ومديح البهاء زهير أقلُّ شعره تشبُّعاً بروحه في الغالب ، وله فيما عدا ذلك نمطٌ خاصٌ يُخرج الموضوعات المطروقة الى نوع من الطرافة . وذكر يلمر مثلاً لذلك قوله في المشيب :

بِ وَقَدْ بَدَأَ صَبِيحَ الْمَشْيَبِ
مَا كَانَ يَخْفَى مِنْ عِيُوبِي

فَقَدْ انْجَلَى لَيْلُ الشَّبَا
وَرَأَيْتُ فِي أَنْوَارِهِ

وَقَوْلُهُ فِي الْمَوْتِ عَشُّقًا :

وَحَيَاتِي وَقَدْ سَلَبْتَ حَيَاتِي
أَخْبَرَ النَّاسَ كَيْفَ طَعْمُ الْمَمَاتِ

أَنْتَ رُوحِي وَقَدْ تَمَلَّكَتَ رُوحِي
مِتُّ شَوْقًا فَأَحْيَيْتَنِي بِوَصَالِ

وَقَوْلُهُ :

أَمُوتُ مَرَارًا فِي النَّهَارِ وَأُبْعَثُ

نَحْذِ مَرَّةً رُوحِي تُرْحَنِي وَلَمْ أَكُنْ

* * *

وَإِنَّ الْمِلَاحَ الْبَيْضَ أَهْبَى وَأَبْهَجُ
يُضِيءُ لَهَا وَجْهَهُ وَتَغْرُ مَفْلَجُ
وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَقَّ أَبْيَضُ أَبْلَجُ

أَلَا إِنْ عِنْدِي عَاشِقَ السُّمْرِ غَالِطُ
وَإِنِّي لِأَهْوَى كُلَّ بَيْضَاءَ غَادِيَةٍ
وَحَسْبِي أَنِّي أَتَّبِعُ الْحَقَّ فِي الْهَوَى

* * *

أَنَا رَاضٍ بِمَا بِهِ أَنْتَ رَاضٍ
أَيْنَ ذَلِكَ الرِّضَا وَأَيْنَ التَّغَاضِي
فِي حَيَاءٍ عَنْ ذِكْرِهَا وَاتَّقْبَاضِ
بِرِيشٍ عَنْهَا وَأَنْتَ فِي الْإِعْرَاضِ
ذَلِكَ مُسْتَقْبَلُ وَهَذَا مَاضِي
وَدَعِ الْعَمَرَ يَنْقُضِي فِي التَّقَاضِي

يَا كَثِيرَ الصَّدُودِ وَالْإِعْرَاضِ
هَاتِ بِاللَّهِ يَا حَبِيبِي قُلْ لِي
إِنْ لِي حَاجَةٌ إِلَيْكَ وَإِنِّي
حَاجَةٌ مَذْأَرْدُتُهَا أَنَا فِي التَّعَدِ
أَمَلِي فِيكَ دُونَهُ سَيْفُ لِحْظِ
أَشْتَهِي أَنْ أَفُوزَ مِنْكَ بِوَعْدِ

* * *

يا مانعاً حلوا الرضا وباذلاً مر السخط
حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

وغير ما ذكره يلمر كثير مضي بعضه فيما مر به ومنه قول
شاعرنا في كتمان اسم الحبيب :

فعرض إذا حدثت بالبان والجمي
وإياك أن تنسى وتذكر زينا
ستكفيك من ذاك المسمى إشارة
ودعه مصوناً بالجمال محجبا

أشر لي بوصف واحد من صفاته
تكن مثل من سمي وكنتي ولقبنا

* * *

عجبت لطيف زار بالليل مضجعي
وعاد ولم يشف الفؤاد المعذباً
وما صد عن أمي مريب وإنما
رأني قتيلاً في الدجى فتهيباً

* * *

وقوله في المشيب أيضاً :

وليس مشيباً ما ترون بعارضي فلا تمنعوني أن أهيم وأطرباً
فما هو إلا نور أغبر لثنته تعلق في أطراف شعري فألهباً

وأعجبني التجنيسُ بيني وبينه فلما تبدَّى أشنباً رُحْتُ أشيباً
وهيفاء بيضاء الترائب أبصرتُ مشيباً فأبدتُ روعةً وتَعْجِباً
جنت لي هذا الشيب ثم تجنبتُ فوا حرباً ممن جنى وتجنّباً

❖ ❖ ❖

جاءت تودعني والدمع يغابها
يوم الرحيل وحادي البين منصلتُ
وأقبلت وهي في خوف وفي دهش
مثل الغزال من الأشرار ينفلتُ
فلم تطق خيفة الواشي تودعني
ويح الوشاة لقد نالوا وقد شمتوا
وقفت أبكي وراحت وهي باكية
تسير عني قليلاً ثم تلتفتُ
وقوله في الوشاة :

إني لأشكر للوشاة يداً عندي يقل لمثلها الشكرُ
قالوا فأغررنا بقولهم حتى تأكّد بيننا الأمرُ

وقوله في الغيرة :

وأنزّه اسمك أن تمرّ حروفه من غيرتي بمسامع الجاليس
فأقول بعض الناس عنك كنايةً خوف الوشاة وأنت كل الناس

وأغار إن هبَّ النَّسيمُ لأنه
ويروغنى ساقى المدام إذا بدا
مُغَرَّى بهـ زَقَوا مِك الميَّاس
فأظنَّ خَدَّكَ مشرقاً فى الكاس

* * *

صدق الواشون فيما زعموا
فليقل ما شاء عني لا تمي
أنا مُغَرَّى بهواها مغرم
أنا أهـواها ولا أحتشم
غلب الوجد فلا أكتمه
إنما أكتُم ما ينكتم
أين من يرحمني أشكوله
إنما الشكوى الى من يرحم
أيها السائل عن وجدى بها
إنه أعظم مما تزعم
ظنَّ خيراً بيننا أو غيره
فخبى فيه تحالو التهم

ورقة البهاء زهير فى غزله أظهر من أن تحتاج الى بيان ؛ وقد
استشهد لها بالمر بقول البهاء يخاطب رسول حبيبه :
ودعنى أفر من مُقاتيك بنظرة فعهدهما ممن أحب قريب

* * *

ومن مختاراته فى هذا الباب قوله :
وغانية لما رأتنى أعولت
وقالت عجب يا زهير عجب
رأت شعرات لحن بيضا بمفرقى
وغصنى من ماء الشباب رطيب

لقد أنكرت مني مشيباً على صبا
 وقالت مشيب؟ قلت ذاك مشيب
 أروح ولي في نشوة الحب هزة
 ولست أبالي أن يقال طروب
 محب خليع عاشق متهمك
 يلدّ لقاى كل ذا ويطيب
 خلعت عذارى بل لست خلاعتى
 وصرت حتى لا يقال مريب
 وفى لي من أهوى وصرح بالرضا
 يموت بغيظ عاذل ورقيب
 فلا عيش إلا أن تدار مدامة
 ولا أنس إلا أن يزور حبيب
 وإني ليدعوني الهوى فأجيئه
 وإني لئنيثني التقي فأنيب
 فيأمن يحب العفو إني مذب
 ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

* * *

أهوى الدقيق من المحا سن والرقيق من النسب

* * *

ومن دلائل تساميه في فهم الجمال عن الصورة المبذولة الى
المعنى الدقيق ، تَغَزُّلُهُ في امرأة طويلة ، وفي امرأة قصيرة ،
وفي بيضاء ، وفي سمراء ، وتَغَزُّلُهُ في عمياء اذ يقول :

قالوا تَعَشَّقُتَهَا عَمِيًّا فقلتُ لهم

ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحاً

بل زاد وجدي فيها أنها أبداً

لا تُبْصِرُ الشَّيْبَ في خَدِّي اذا وَضَحَا

إن يَجْرِحَ السَّيْفُ مسلولاً فلا عَجَبٌ

وانما عَجَبِي من مُغْمَدٍ جَرَحَا

كأنما هي بستانٌ خلوتُ به

ونام ناظرُهُ سكرانٌ قد طفحَا

تَفَتَّحَ الوردُ فيه من كَأَمِّه

والنَّرجسُ الغَضُّ فيه بعدُ ما آنفتحا

وله أيضاً :

يا صايرِ القلوبِ إلَّا عن محبتهمْ

وسالبي الطرفِ إلَّا عنهمْ نَظَرَهْ

وبِئْسَ اللَّيْلَ في أَمْنٍ وفي دَعَاةٍ

وليس عندكم علمٌ بمن سَهَرَهْ

فكم غرست وفائي في محبتكم
 فما جنيت لغرسي فيكم ثمرة
 ولم أنل منكم شيئاً سوى تهم
 تُقال مشروحةً فينا ومختصرة
 قوية العزم في إتلاف عاشقها
 ضعيفة الحصر والأحاط والبشره

ومن ذلك قوله :

فلا تبعثوا لي في النسيم تحيةً فيرتاب من طيب النسيم جليسي
 وكنتم وعدتم في الخميس بزورة فكم من خميس قد مضى وخميس
 واني لأرضي كل ما ترتضونه فإن يرضكم بوسي رضىت بوسي
 على أن لي نفساً على عزيزة وفي الناس عشاق بغير نفوس
 ويظهر في غزال البهاء زهير صدق اللهجة وكأل الفهم لجمال
 المرأة والتأثر به :

فلا تفرعوا بالعتب قلبي فإنه
 وحقكم مثل الزجاج صديق
 سابيكي وإن تنفذ دموعي عليكم
 بكيك بشعر رق فهو دموع
 أحب البديع الحسن معنى وصورة
 وشعري في ذاك البديع بديع

وله في العشق وتقديره نظر دقيق ، فهو يقول :
ملائتم فؤادي بالهوى فهو مترع
ولا كان قلب في الهوى غير مترع

ويقول أيضا :

لحي الله قلبا بات خلوا من الهوى
وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف
وإني لأهوى كل من قيل عاشق
ويزداد في عيني جلالا ويشرف
وما العشق في الإنسان إلا فضيلة
تدبث من أخلاقه وتلطف
يعظم من هوى ويطلب قربه
فتكثر آداب له وتظرف

* * *

أعشق الحسن والملاحة والظرف وأهوى مكارم الأخلاق

* * *

إني لأهوى الحسن حيث وجدته وأهيم بالغصن الرشيق وأعشق

* * *

فكل ضلال في هواك هداية وكل شقاء في هواك نعيم

لَا مَ فِي الْحُبِّ أَنْاسٌ * * * وَهُوَ أَخْلَاقُ الْكِرَامِ
مَا أَرَى النَّاسَ سِوَى الْعَشَّاقِ مِنْ كُلِّ الْأَنَامِ

ويقول :

يَجْزِي اللَّهَ عَنِّي الْحُبُّ خَيْرًا فَإِنَّهُ بِهِ آزْدَادٌ مَجْدِي فِي الْأَنَامِ وَعَلَيَّائِي
وَصَيَّرَ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا لِأَنِّي أَحْسَنُ أَفْعَالِي لِتَحْسُنَ أَسْمَائِي
وَقَدْ يَكُونُ فِي هَذَا النِّظْمِ بَعْضُ الضَّعْفِ ، وَلَكِنَّهُ يَعْبُرُ عَنْ
مَعْنَى مَنْ أَشْرَفَ الْمَعَانِي وَالْطُّفْهَى .

وغزل البهاء زهير فن في الأدب العربي خرج عن صُور الغزل
التي رسمتها التقاليد : فليس بكاءً على الأطلال والدمن ، ولا وصفًا
لسفر الحبيب على ناقته تجوب الصحراء ، ولكنه حكاية لما يجري
بين الأحباب في الحياة وما يتبادلونه من حوار وعتاب ، ونعت
لمجالس مُتَمَتِّعة بين عاشقين ، ووصف للحب نفسه وما يحدث في نفس
المحب من نزوع إلى الكمال .

وقصائد البهاء زهير تكون عبارة عن موضوع متّصل المعاني لا تتجدد
فيه ما تجد في غالب الشعر العربي من تنقل واستطراء يكاد يفقد
الصلة بين أجزاء الشعر الواحد . ويُلاحَظ أَنَّ البهاء زهير لا يتخرج من
استعمال العبادة في الحب ، وهو نادر في الشعر العربي ، وذلك كقوله :
وَمِنَ الْعَجَائِبِ فَعَلَهُ بِحُبِّهِ يُصَالِيهِ نَارًا وَهُوَ مِنْ عِبَادِهِ

وقوله :

بِأَشْكُرُ حُبًّا زَانَ فَيْكَ عِبَادَتِي وَإِنْ كَانَ فِيهِ ذِلَّةٌ وَخُسُوعٌ
أُصَلِّيَ وَعِنْدِي لِلصَّبَابَةِ رَقَّةٌ فَكُلُّ صَلَاتِي فِي هَوَاكَ خُشُوعٌ

وقوله :

لِي حَبِيبٌ عَبْدُهُ وَيَحْ مَن يَعْبُدُ الْوَشْنَ

ومن الفنون الجديدة في شعر البهاء زهير تسجيله لمشاهد
وصُور تَمَّ عن حبه لوطنه ، وتذوقه لما فيه من نعيم طبعي وغير
طبعي ، ونذكر من أمثلته :

لِلَّهِ بِسَاتَانِي وَمَا	قَضَيْتُ فِيهِ مِنَ الْمَارَبِ
لَهْفِي عَلَى زَمَانِي بِهِ	وَالْعَيْشُ مُحْضَرُ الْجَوَانِبِ
وَلَكُمُ بَكَرْتُ لَهُ وَقَدْ	بَكَرْتُ لَهُ أَيْدِي السَّحَابِ
فِي رَوْقِي وَالْجَوْ مِنْ	لَهُ سَاكِنٌ وَالْقَطْرُ سَاكِبٌ
وَالطَّلُّ فِي أَغْصَانِهِ	يَحْكِي عَقُودًا فِي تَرَائِبِ
وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهُ	فَتَأَرْجَتْ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَبَدَأَ عَلَى دَوْحَاتِهِ	ثَمَرُ كَاذَنَابِ الثَّعَالِبِ
وَكَأَنَّمَا آصَالُهُ	ذَهَبٌ عَلَى الْأُورَاقِ ذَائِبِ
فَهَنَّاكَ كَمُ ذَهَبِيَّةٍ	لِي فِي الْوُلُوعِ بِهَا مَذَاهِبِ

* * *

عَلَا حِسُّ النَّوَاعِيرِ	وَأَصْوَاتُ الشَّحَارِيرِ
وَقَدْ طَابَ لَنَا وَقْتُ	صَفَا مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرِ
فَقُفُّمُ يَا أَلْفَ مَوْلَايَ .	أَدْرِهَا غَيْرَ مَأْمُورِ
وَوُخِذْهَا كَالدَّانِيرِ	عَلَى رَغَمِ الدَّانِيرِ
أَدْرِهَا مِنْ سَنَا الصُّبْحِ	تَزِدُ نُورًا عَلَى نُورِ
عُقَارًا أَصْبَحْتُ مِثْ	بِلْ هَبَاءٍ غَيْرِ مَنُورِ
بَدْتُ أَحْسَنَ مِنْ نَارِ	رَأَتْهَا عَيْنُ مَقْرُورِ
تَزَلْنَا شَاطِئَ النَّيْلِ	عَلَى بُسْطِ الْأَزَاهِيرِ
وَقَدْ أَضْحَى لَهُ بِالْمَوْ	حِجْ وَجْهٌ ذُو أُسَارِيرِ
وَفِي الشَّطِّ حَبَابٌ مِثْ	بِلْ أَنْصَافِ الْقَوَارِيرِ
تَسَابَقْنَا إِلَى اللَّهِـو	وَوَافِينَا بَتَبْكِرِ
وَفِينَا رَبُّ مُحَرَابِ	وَفِينَا رَبُّ مَاخُورِ
وَمِنْ قَوْمِ مَسَاتِيرِ	وَمِنْ قَوْمِ مَسَاخِيرِ
وَمِنْ جَدٍّ وَمِنْ هَزَلِ	وَمِنْ حَقٍّ وَمِنْ زُورِ
فَطُورًا فِي الْمَقَاصِيرِ	وَطُورًا فِي الدَّسَاكِيرِ
وَرَهْبَانٍ كَمَا تَدْرِي	مِنْ الْقَبْطِ النَّحَارِيرِ
وَفِيهِمْ كُلُّ ذِي حُسْنِ	مِنْ الْإِحْسَانِ مَوْفُورِ
وَتَالِ لِلْمَزَامِيرِ	بَصَوْتِ كَالْمَزَامِيرِ

وفي تلك السبرانيس	بدور في دياجير
وجوه كالتصاوير	تصلي للتصاوير
ومن تحت الزناير	خصور كالزناير
أتيناهم فابقوا	ولا ضنونا بمذخور
لقد مر لنا يوم	من الغر المشاهير
على ما خلته من غي	ير ميعاد وتقدير
فقل ما شئت من قول	وقدر كل تقدير

وليستطيع الناظر في شعر البهاء أن يستخرج أحوال عصره في كثير من الشؤون : فهو يشير إلى عادات وشؤون دينية وغير دينية . وموضوعات شعره متصلة بعواطفه وبحياة زمنه أشد الاتصال ، بخلاف غيره من الشعراء الذين يكون شعرهم صورة حياة غير حياتهم ، وعواطف غير عواطفهم .

وهذه نماذج مما يتضمنه شعر البهاء زهير من شؤون عصره :

أنا في الحب صاحب المعجزات	جئت للعاشقين بالآيات
كان أهل الغرام قبلي أمي	ين حتى تلقنوا كلماتي
فأنا اليوم صاحب الوقت حقا	والمحبون شيعتي ودعائي
ضربت فيهم طبولي وسارت	خافقات عليهم راياتي
تكلمت في الأمر الذي قد لقيته	ولي خطرات كلهن فتوح

والله مَذْفُوفُكُمْ
لم تَصِفْ لِي مَوَارِدِي
فهل زَمَانِي بَعْدَهَا
بِقُرْبِكُمْ مُسَاعِدِي
فكم نَدُورٌ أَصْبَحْتُ
عَلَى السَّاجِدِ

أَيَا مَعْشَرَ الْأَصْحَابِ مَا لِي أَرَاكُمْ
عَلَى مَذْهَبِ اللَّهِ غَيْرِ حَمِيدِ
فهل أَنْتُمْ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَقِيَّةٌ
فَمَا مِنْكُمْ مَنْ فَعَلَهُ بِرَشِيدِ
فإن لم تَكُونُوا قَوْمَ لُوطٍ بَعِيْنِهِمْ
فَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدِ

وَجَاهِلٌ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فِلْسَفَةً
قَدْ رَاحَ يَكْفُرُ بِالرَّحَنِ تَقْلِيدًا
وَقَالَ أَعْرِفْ مَعْقُولًا فَقُلْتُ لَهُ
عَنَيْتَ نَفْسَكَ مَعْقُولًا وَمَعْقُودًا
مَنْ أَيْنَ أَنْتَ وَهَذَا الشَّيْءُ تُذَكِّرُهُ
أَرَاكَ تَقَرَّعُ بَابًا عَنْكَ مَسْدُودًا
فَقُلْتُ إِنْ كَلَامِي لَسْتُ تَفْهَمُهُ
فَقُلْتُ لَسْتُ سَلِيْمَانُ بْنُ دَاوُدَا

إِذَا مَا أَفْضُنَا فِي أَفَانِينَ ذَكَرِهِ
يَقُولُ جَهْلُ الْقَوْمِ قَدْ عَبَّرَ الْخَضِرُ

وَصَاحِبٍ أَصْبَحَ لِي لَانِمًا
لَمَّا رَأَى حَالَةَ إِفْلَاسِي
قُلْتُ لَهُ إِنِّي أَمْرٌ لَمْ أَزَلْ
أُفْنِي عَلَى الْأَيَّاسِ أَيْكَاسِي
مَا هَذِهِ أَوَّلُ مَا مَرَّ بِي
كَمْ مِثْلَهَا مَرَّ عَلَى رَاسِي
دَعْنِي وَمَا أَرْضَى لِنَفْسِي وَمَا
عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ مِنْ بَاسٍ
لَوْ نَظَرُوا النَّاسَ لِأَحْوَالِهِمْ
لَا شْتَغَلُ النَّاسُ عَنِ النَّاسِ

قَلَّ الثَّقَاتُ فَلَا تَرَكُنْ إِلَى أَحَدٍ فَأَسْعِدُ النَّاسَ مَنْ لَا يَعْرِفُ النَّاسَا
لَمْ أَلْقَ لِي صَاحِبًا فِي اللَّهِ أَصْحَبُهُ وَقَدْ رَأَيْتُ وَقَدْ جَرَّبْتُ أَجْنَاسَا

قَصِدْتُكُمْ أَرْجُوا انتصارًا عَلَى الْعِدَا حَسِبْتُكُمْ نَاسًا فَمَا كُنْتُمْ نَاسَا
فَلَمْ تَمْنَعُوا جَارًا وَلَمْ تَنْفَعُوا أَخَا وَلَمْ تَدْفَعُوا ضِيًّا وَلَمْ تَرْفَعُوا رَاسَا

لَمَّا التَّحَى وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ السَّعُودُ لَهُ نُحُوسَا
أَبْدَيْتَ لَمَّا رَاحَ يَحْ لَاقُ خَدَّهُ مَعْنَى نَفِيسَا
وَأَذَعْتُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ الْقَصْدَ الْحَسِيسَا
لَكُنْ غَدَا وَعَذَارُهُ خَضِرَ فَسَاقُ إِلَيْهِ مُوسَى

مَا أَصْعَبَ الْحَاجَةَ لِلنَّاسِ فَالْغَنَمُ مِنْهُمْ رَاحَةُ الْيَاسِ
لَمْ يَبْقَ فِي النَّاسِ مُوَاسٍ لِمَنْ يُظْهِرُ شَكْوَاهُ وَلَا آيِسِ
وَبَعْدَ ذَا مَا لَكَ عَنْهُمْ غِنَى لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

أَحِبَّائِنَا حَاشَاكُمْ مِنْ عِيَادَةٍ
فَذَلِكَ أَمْرٌ فِي الْقُلُوبِ مَضِيضُ
وَمَا عَاقَبَنِي عَنْكُمْ سِوَى السَّبْتِ عَائِقُ
فَفِي السَّبْتِ قَالُوا مَا يُعَادُ مَرِيضُ

وللناس عاداتٌ وقد ألفوا بها
 لها سننٌ يَرَعُونَهَا وفروضهم
 فمن لم يُعَايِشْهُمْ على العُرْفِ بينهم
 فذاك ثَقِيلٌ بينهم وبَغِضُ

وقائلة لما أردتُ وداعها
 فيارب لا يَصْدُقُ حديثُ سَمْعَتِهِ
 وقامت وراء السترِ تبكي حزينَةً
 بكتُ فأرتنى لؤلؤاً متناثراً
 ولما رأْتُ أن الفراقَ حَقِيقَةٌ
 تَبَدَّتْ فِلا والله ما الشمسُ مثلُها
 تُسَلِّمُ باليمنى على إشارةٍ
 وما بَرِحْتُ تبكي وأبكي صبايةً
 ستُصْبِحُ تلك الأرضُ من عبراتنا

أيها النفسُ الشريفةُ
 وعقولُ الناسِ في رَغْدٍ
 آه ما أَسْعَدَ مَنْ كا
 أيها المسيرُفُ أَكْثَرُ
 أيها المغرور لا تَفِدْ
 إنما دُنْيَاكَ جِيفَةٌ
 يبتهم فيها تَخِيفُهُ
 رتُهُ فيها خَفِيفُهُ
 تَ أَبَا زِيرِ الوظيفُهُ
 رَحْ بِتَوْسِيعِ القَظِيفُهُ

أيها المسكين هَبْ أَذَّنْكَ في الدنيا خائفة
هل يَرُدُّ الموتَ سُلْطَانُكَ في الدنيا الكاشفة

كلامِي الذي يصبو له كُلُّ سامعٍ
ويهواه حتى في الحُدُور العواتقُ
كلامِي غَنِيٌّ عَنْ لَحُونِ تَزِينِهِ
له مَعْبِدٌ مِنْ نَفْسِهِ وَمُخَارِقُ
لِكُلِّ امرئٍ مِنْهُ نَصِيبٌ يُحْصَى
يَلَامُ مَا فِي طَبْعِهِ وَيُؤَافِقُ
يُغْنِي بِهِ النَّدَمَانُ وَهُوَ فَكَاهَةٌ
وَيُشْهِدُ الصُّوفِيَّ وَهُوَ رَقَائِقُ
به يَقْتَضِي الْحَاجَاتِ مَنْ هُوَ طَالِبٌ
وَيَسْتَعِظُ الْأَحْبَابَ مَنْ هُوَ عَاشِقُ

تَعَلَّمْتُ خَطَّ الرَّمْلِ لَمَّا هَجَرْتُمْ	لَعَلِّي أَرَى شَكْلًا يَدُلُّ عَلَى الْوَصِيلِ
وَرَغَبْنِي فِيهِ بَيَاضٌ وَحُمْرَةٌ	عَهْدَتُهُمَا فِي وَجْنَةٍ سَلَبَتْ عَقْلِي
وَقَالُوا طَرِيقُ قَلْتٍ يَارَبِّ الرِّضَا	وَقَالُوا آجَتَاعُ قَلْتٍ يَارَبِّ الشَّمْلِ
فَأَصْبَحْتُ فِيكُمْ مِثْلَ مَجْنُونٍ عَامِرٍ	فَلَا تُتَكْرَمُوا أَنِّي أَخْطُ عَلَى الرَّمْلِ

وإذا كان البهاء زهير شاعر مهنة في مدائحه غالباً، فهو في سائر
قريضه شاعر الطبع، وله نفثات تجلّى نفسه على ما هي عليه مرسوم
سجايها، كقوله :

يا سائل عما تجدد بي أَلْهالٌ لم تنقُص ولم تزدِ
وكما علمت فإنني رجلٌ أفتى ولا أشكو إلى أحدِ

* * *

وَمِنْ خُلُقِي أَنِّي أَلُوفٌ وَأَنَّهُ
يطول التفاني للذين أُوْفِرُ
يحرك وجدى في الأراكة طائرٌ
ويبعثُ شجوى في اللجّة بارقٌ
وأقسم ما فارقت في الأرض منزلاً
ويذكر إلا والدموع سوابقٌ
وعندي من الآداب في البعد مؤنسٌ
أُفَارِقُ أوطاني وليس يُفَارِقُ
ولى صبوة العشاق في الشعر وحده
وأما سواها فهى منى طالقٌ

* * *

مذ كنت لم تكن الحيا نة في المحبة من خلاقِ
ولقد بكيت وما بكيتُ من الرياء ولا التفاقِ

برقيقة الألفاظ تحـ	يكي الدمع إلا في المذاق
لم تدر هل نطقت بها الـ	أفواه أم جرت المآق
لطفت معانيها ورقـ	تت والحلاوة في الرقاق
مصرية قد زانها	لطفاً مجاورة العراق

* * *

كذلك تلقاني اذا ما ذكرتنـ	يسر حفاظي صاحبي وقريني
اذا قلت قولاً كنت للقول فاعلاً	وكان حيائي كافلي وضميني
تبشّر عني بالوفاء بشاشتي	وينطق نور الصديق فوق جبيني

* * *

الى كم مقامي في بلاد معاشير	تساوى بها آسادها وذئابها
وقلدتها الدر الثمين وإنه	لعمرك شيء أنكرته رقابها
وما ضاقت الدنيا على ذي مروءة	ولا هو مسدود عليه رحابها

* * *

وإني اذا آرتاب الوشاة لأدعي	لدى حجاج لم يبد لها عاشق قبلي
وأستعمل الكحل الذي فيه حدة	وأوهم أن الدمع من شدة الكحل
فيا صاحبي أقا على فلا تخف	فما يطمع الواشون في عاشق مثلي
ودعني والعدال مني ومنهم	سيذرون من منا يمل من العدل

وكتب الى الوزير نحر الدين أبي الفتح عبد الله بن قاضي داريا

يشكو اليه بعض غلمانہ :

سواك الذي ودى لديه مضجع	وغيرك من يسعى اليه محجب
ووالله ما آتيك إلا محبة	وإني في أهل الفضيلة أرغب
فإلى ألقى دون بابك جفوة	لغيرك تعزى لا إليك وتنسب
أردت رد الباب إن جئت زائراً	فيا ليت شعري أين أهل ومرحب
ولست بأوقات الزيارة جاهلاً	ولا أنا ممن قربه يتجنب
وقد ذكروا في خادم المرء أنه	بما كان من أخلاقه يتهدب
فملاً سرت منك اللطافة فيهم	وأعدتهم آدابها فتأذبوا
ويصعب عندي حالة ما ألفتها	على أن بعدى عن جنابك أصعب
وأمنك نفسي عن لقائك كارهاً	أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأنف إماً عزة منك نلتها	وإماً لإدلال به أتعب

* * *

أغار على حرف يكون من اسمها إذا ما رآته العين في خط كاتب

* * *

فلنكم في من مكارم خلق	ولكم في من حميد صفات
لست أرضى سوى الوفاء لذي الود	ولو كان في وفائي وفاتي

وألوفُ فلو أفرقُ بؤساً لسوالتُ لفقده حسراتي
طاهر اللفظ والشئيل والأخ بلاق عَف الضمير والخطات
ومع الصمت والوقار فإني دَمِثُ الخلق طيبُ الخلوات

* * *

وَمِنْ خُلُقِي المشهورِ مذ كنتُ أني
لغير حبيبٍ قَطُّ أن أتدَّلا
وقد عشتُ دهرًا ماشكوتُ لحادثٍ
بلى ! كنتُ أشكو الأغيدَ المتدَّلا
وما هنتُ إلا للصبايةِ والهوى
وما خفتُ إلا سطوةَ الحجرِ والقلَى
أروح وأخلاقى تذوبُ صبايةً
وأغدو وأعطافى تسيلُ تغزلا
أحبُّ من الظبيِ الغريرِ تَلَفَّتَا
وأهوى من الغصنِ النضيرِ تَفَنَّتَا
فما فاتنى حظي من اللهو والصَّبا
وما فاتنى حظي من المجدِّ والعلا

* * *

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ
مثلُ ما تفنى المسرَّة أتُ كذا تفنى الهمومُ

* * *

حبذا نفحة ریح فرجت عني غمه
ضربت ثوب فتاة أكرت تيبها وحشمه
فرايت البطن والد رة والخصر وثمه

* * *

أنا بالفراق مروع أبدا ذا طالعي فيه وذا نجى

* * *

أحب من الأشياء ما كان فائقا وما الدون إلا من يميل الى الدون
فأهجر شرب الماء غير مصفقا زلال وأكل اللحم غير ميم
وإن قيل لي هذا رخيص تركته ولا أرتضى إلا بكل ثمين

* * *

خاني من تصنع للورى أو تزين
فالعمرى يريدنى فرط هذا التسنن

وقال وقد سمع إنسانا يقدر فى رجل صالح من مشايخ
الصوفية :

أيقدر فيمن شرف الله قدره وما زال مخصوصا به طيب الثنا
لعمرك ما أحسنت فيما فعلته وليس قبيح القول فى الناس هينا
فيا قائلا قولاً يسوء سماعه بحقك نزهنا عن الفحش والحنأ
نطقت فلم تحسن ولم تبق ساكنا لقد فاتك الأمر الذى كان أحسنا

دَعِ الْقَوْمَ إِنْ الْقَوْمَ عَنْكَ بِمَعْرِلٍ وَإِنَّكَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ لَفِي غِنَى
رَجُلًا لَهُمْ سِرٌّ مَعَ اللَّهِ خَالِصٌ وَلَا أَنْتَ مِنْ ذَاكَ الْقَبِيلِ وَلَا أَنَا
تَكَلَّفْتَ أَمْرًا لَمْ تَكُنْ مِنْ رَجَالِهِ لَكَ الْوَيْلُ مِنْ هَذَا التَّكَلُّفِ وَالْعَنَاءِ
تَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا وَتُبْدِي تَزْهَدًا وَلَا أَنْتَ مَعْدُودٌ هُنَاكَ وَلَا هُنَا

وفي كتاب "النجوم الزاهرة" في ترجمة البهاء زهير: «وبرع في النظم والنثر والترسل، وله الشعر الرائق الفائق. وكان رئيسا فاضلا، حسن الأخلاق، ... ومن شعره:

ولما جفاني من أحب وخاني حفظت له الود الذي كان ضيِّعا
ولو شئتُ قابلتُ الصدودَ بمثله ولكنني أبقيتُ للصالح موضعا
وقد كان ما قد كان بيني وبينه أكيدا ولكني رعيتُ ومارعي
سعى بيننا الواشي ففترق بيننا لك الذنبُ يا من خاني لا لمن سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية، على يد ولده صلاح الدين، إلى محمد بن الحكيم عماد الدين الديريني، وهو آخر ما قاله:

ما قلتُ أنت ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا
إن الكرام إذا صحبتهم ستروا القبيحَ وأظهروا الحسن
